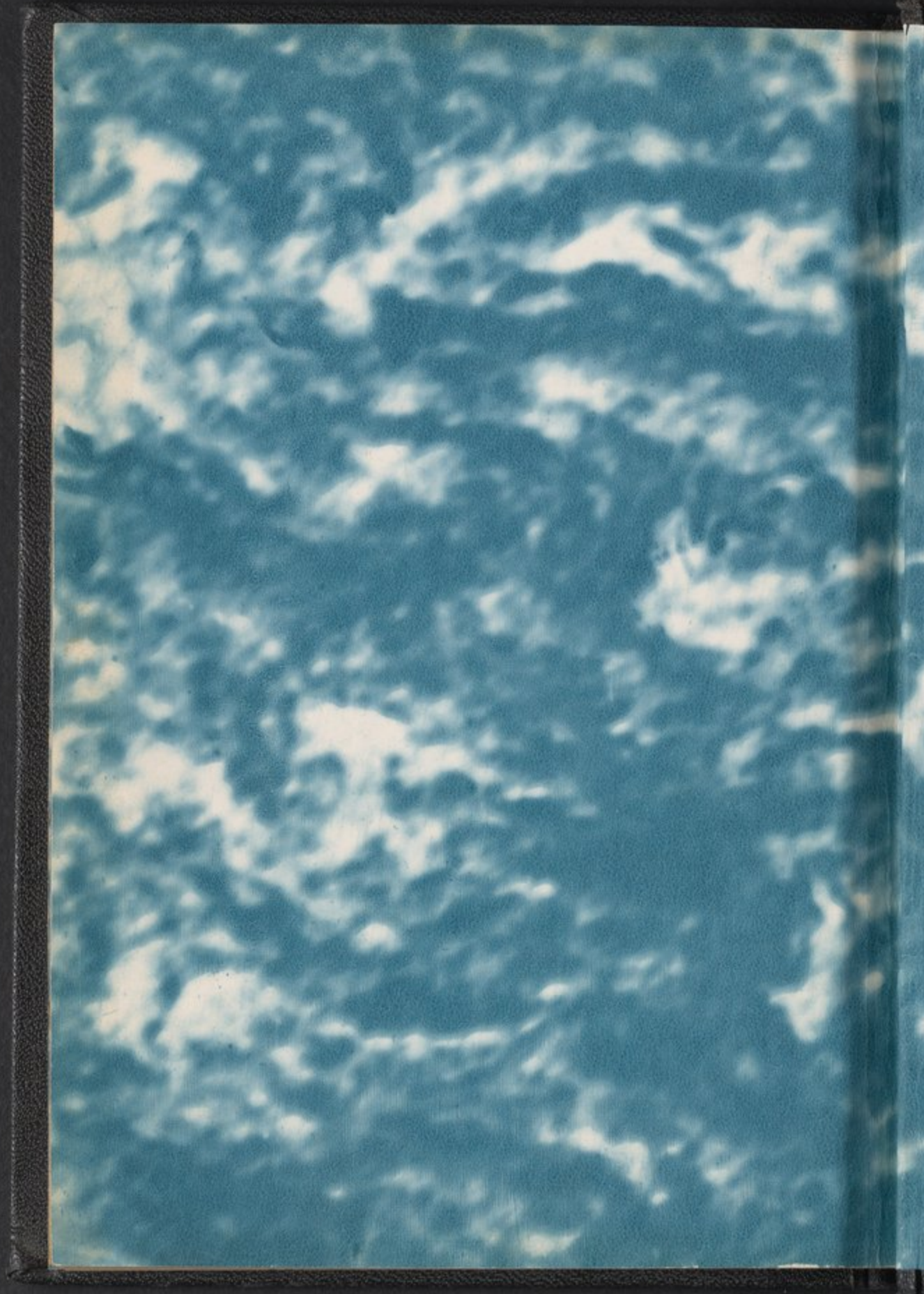


AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 01121 6185



FROM THE
LIBRARY OF
THE
AMERICAN UNIVERSITY
IN
CAIRO

من مكتبة
الجامعة الأمريكية بالقاهرة



TY

LI

قَصَصُنَا الشَّعْبِيَّ

G R
355
A 72 X
1944
C.1

للدكتور

فؤاد حنين على

الأستاذ المساعد بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

الناشر

دار الفكر العربي

القاهرة

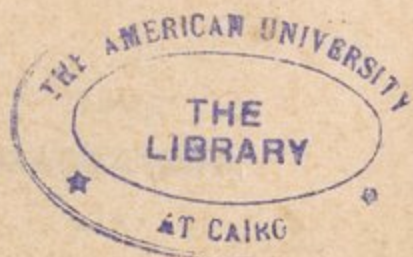
مطبعة دار الفكر العربي

١٩٤٧

TY

II

11564
65.15



مقدمة

القصة هي أقدم مظهر من مظاهر التاريخ ، وأول صورة للإنسانية في طفولتها . فهي صدى الخوف والاضطراب ، ومظهر القوة والجبروت ، ومعرض اللذة والفرح أو الحرمان والألم . القصة مرآة الطفولة وصورة الحياة ، هكذا كانت ، وهكذا هي ، وستكون . القصة هي هذا الضرب من الأدب الذي يعنى بالنفس البشرية ويعرضها لنا كما هي على سجيتهما ، وكما عرفتها الحياة . لذلك لم يخل أدب من آداب العالم منها سواء كان هذا الأدب شرقيا أو غربيا ، رفيعا أو وضيعا . القصة هي التي سارت العصور وجارت الشعوب . لذلك فهي فصل ممتع من سفر تاريخ البشرية ، كما أنها مظهر من مظاهر الخيال الذي لا بد من توافره في الشعر والنثر . ومن هذه الناحية أيضا هي أنموذج من نماذج الأسلوب وصيغة من صيغ الحكاية والأخبار والتأليف .

وبينا نتخذ الأسطورة من الآلهة أبطالاً ، وتعنى الملحمة بالبطولة ، والبطولة المطلقة ، وتحدثنا عن أعمال أبطالها حديثاً أقرب إلى المعجزات منه إلى الأعمال البشرية ؛ إذ بالقصة تقف موقفاً وسطاً بين الأسطورة والملحمة لأنها تعنى بالإنسان قبل كل شيء ، وبجالاته النفسية ، ومن هذه الناحية كانت هي الخطوة السابقة للأسطورة

والمرآة التي تنعكس عليها العقيدة الدينية الفطرية .

لكن يجب ألا نفهم من هذا أن القصة وهى ملك مشاع بين سائر الشعوب واحدة عند سائر الأمم ، فنحن نعلم مثلا أن القصة الهندية تغاير العربية ، والأخيرة غير القصة الغربية بالرغم من وجود العوامل المشتركة بينها ، وذلك لأن لكل شعب بيئته الخاصة ، وطبيعته الخاصة ، وظروفه الخاصة ، وكل هذه العوامل تكيف نفسيته ولا شك تكييفها خاصا يظهر أثره بصورة واضحة من قصصه . فالحقيقة المسلم بها مثلا أن الخالق منح العربى حظا وافرا من الخيال والقدرة على أن يصوغ من المادة المحيطة به قصة لطيفة جميلة ، كما أن هذه العقلية العربية تمتاز كغيرها من عقليات الشعوب السامية بإعادة تأليف القصص القديمة التى توارثتها منذ أقدم العصور ، وإظهارها فى ثوب يكاد يكون جديدا . وكتبنا الدينية سواء منها السماوية وغير السماوية ملأى بشتى القصص ومختلف الأساطير والملاحم المتصلة بالنفس البشرية اتصالا مباشرا ، لذلك أصبح من السهل علينا أن نتعرف إلى خلق القصة العربية وطريقة العربى فى الإفصاح عن نفسه ثم إلى أى حد نجحت هذه القصة خاصة فى العصور الوسطى فى غزو العقلية الغربية والتغلغل فى الآداب الأوربية ، ودراسة مثل هذه الظاهرة تطلعنا ولا شك على مدى استعداد الآداب الأجنبية فى قبول العناصر الأدبية الأخرى . وهذه الظاهرة تعاون مؤرخ الأدب المقارن على الاهتداء إلى القوانين الجديدة التى تمتاز بها الآداب المختلفة .

لكن يجب ألا يتبادر إلى ذهن القارئ أن تاريخ القصة أو تتبعها في الآداب عامة من الأمور السهلة اليسيرة ، وذلك لكثرة القصص أولاً ، وتعدد اللغات التي تحكي بها أو تدون فيها ثانياً ؛ هذا إلى جانب أن القصة الواحدة قد تتطور عناصرها في الشعب الواحد الذي نشأت فيه تطوراً قد يبعدها عن طبيعتها الحقيقية فكل هذه العقبات كثيراً ما تقف في طريق دارس القصص ومؤرخه .

وبالرغم من كل هذه الصعوبات التي تعترض الباحث نستطيع أن نتحدث عن القصة ونشأتها ، تطورها وانتشارها ، ولهذا السبب وضعت هذا الكتاب ، ولهذا السبب أيضاً سأشير إلى جهود العلماء التي بذلت في هذا السبيل ، وأسرع وأقرر أن القصة السامية كأختها الهندية تمتاز بقديم العهد وطول العمر بخلاف قصص الشعوب الأخرى التي هي أحدث بكثير من أختها الشرقية ، ومن هنا تركت الشرقية في الغربية أثراً بعيداً ، وأصبح اليوم من السهل إرجاع العناصر الشرقية في الآداب الأوربية إلى منابعها الأولى ، ويكفي أن أشير هنا إلى قصص ألف ليلة وليلة وبرلام ويواسف ، فالأخيرة عبرت الهند إلى بلاد العرب عن طريق فارس ، ومن ثم إلى أوروبا حيث غزت عالم القصص الغربي وتغلغلت في شتى آداب القارة الأوربية من شمالية ، وأنجلوسكسونية ، وكلتية ، وصقلبية .

وفي هذا الكتاب أيضاً سأعرض للقارئ أشهر القصص العربية المتداولة ومنها ما هو عربي ومنها ما هو دخيل ، كما حرصت

أيضاً على ذكر شيء حول الأساطير السامية القديمة للصلة الوثيقة
بينها وبين قصصنا عامة ، وأفردت فصلاً للكلام عن مصدر القصة
وآخر عن تكوينها . وأرجو أن تتاح لي الفرصة فأرجع لهذا الموضوع
ثانية وأحدث القارئ عن مجموعة أخرى من قصصنا الشعبي سواء
تلك نشرت أو التي ما زالت محفوظة في خزانات المخطوطات .

فؤاد مهنين

مصدر القصة

لعل السر في نجاح القصة وانتشارها هذا الانتشار الذي طغى على الشعر والشعراء هو اتصاله بالطبيعة وصدق تعبيرها عن النفس الإنسانية ، فالقصة تجعل الجاد حيا ، كما تترك الطيور تتحدث ، والأحجار تتحرك وتتكلم ، وهي تمزج بين الإنسان والحيوان والنبات والجماد وسائر مظاهر الكون وقوى الطبيعة ، وهي تتحدث عن الظاهر والباطن ، وعن عالمنا وسائر العوالم الأخرى من نورية ونارية . القصة هي هذه القطعة الأدبية التي تسمح للمغنى بالغناء ، والرسام بالرسم ، ومن هنا عبر بعض العلماء عنها بقوله إنها « شعر الرومنتيك » لقدرة مؤلفها على التعبير عن طريقها عن كل عواطفه ، ومشاعره ، وسائر رغباته ، فيسمو إلى أعلى مراتب الفن الرفيع .

فإذا كان هذا هو حال القصة وهذه هي طبيعتها وجب عليه أن يرجع إلى الوراثة إلى الديانة الفطرية لفهم على ضوءها عناصر القصة فلا تبدولنا وكأنها أُلغاز أو خرافات ، ونترك سر التمسك بها ، والعناية الموجهة إليها .

الدين بمعناه العام المصطلح عليه هو العلاقة بين الإنسان من ناحية ، وبين القوة التي فوق طاقته من ناحية أخرى . وهذه القوة

هي التي تهيمن عليه ويؤمن بها ، فيعبر عن ذلك بالضعف والعجز عن تمام الاعتماد على نفسه ، وبالخوف وإقامة الصلاة وتأدية الطقوس الدينية خاصة ما يتصل منها بتقديم القرابين وغيرها . وتختلف هذه العلاقات باختلاف القوة التي يدين الإنسان بها ، وذلك لأنها شيء نسبي يختلف طوراً حسب الزمان فقط ، وطوراً حسب المكان فقط ، وطوراً حسبهما معاً ، وهذه هي الأسباب التي أدت إلى تنوع الديانات واختلاف العقائد بالرغم من إتفاقها جميعاً في ظاهرة واحدة ألا وهي الظاهرة النفسية التي تكفل للإنسان حياة دنيوية سعيدة ، كما تزود الجنس البشري بسلاح قوى الدفاع به عن نفسه ضد الفناء . ولا شك في أن العمل على المحافظة على هذا الجنس هو الهدف الذي تنوعت معظم الديانات في السعي إليه والعمل على تحقيقه ، لذلك أخذت تعنى بالإنسان منذ ولادته حتى وفاته ، فهي تحتمل به عند ولادته ، وعند ختانه ، وعند زواجه ، ومن ثم فهي تحيطه بشيء غير قليل من التعاويذ والأدعية حتى لا يمسه مكروه ، ويمضي حياته سعيدة خصبة . ولم يقف اهتمام الأديان بالإنسان عند ذلك الحد بل تراها تتخذ الإجراءات اللازمة التي تكفل له المحافظة على حياته ضد الطوارئ الطبيعية ، ففرضت الصلوات ، وأوجدت الأدعية والتعاويذ وسائر الطقوس الأخرى ، وهذا ما يعمل لنا وجود الكثير من العادات الشعبية خاصة ما يتعلق منها بالنسل . وهذه العادات الشعبية هي اتصال مباشر بالطبيعة وهو يختلف قلة وكثرة حسب

نصيب أصحاب كل دين من ثقافة ومدنية ؛ إذ كلما زاد نصيب الفرد من الحضارة كلما أخذت علاقته بالطبيعة تضعف لأنه يصبح في حالة عقلية تمكنه لحد ما من أن يتقى فيضان الأنهار ، ووبلات الصواعق مثلاً من ناحية ، ويعمل حدوث الزلازل وثوران البراكين ، وهبوب الزعازع والأعاصير ، وقصف الرعد ووميض البرق من ناحية أخرى بخلاف الإنسان الفطري الذي يسند كل عمل من هذه الأعمال إلى روح من الأرواح . فالطبيعة عنده كائن حي بمعنى أن كل ما فيها حي ؛ فالحجر مثلاً ما دام قادراً على قتل الفرد حي ، فالحياة ليست قاصرة على الإنسان والحيوان والنبات بل هي في كل جزء من أجزاء الطبيعة ، فالسيف مثلاً كائن حي ما دام صالحاً للقتل ، وإن فشل فهو إما ميت وإما هناك قوة سحرية أوقفت حياته فيجب مقاومتها ، ولن يتم ذلك إلا بفضل قوة سحرية أخرى . وهذه النظرية أعني نظرية وجود الحياة في كل كائن هي الأساس الذي بنيت عليه الديانات المعتمدة على الخرافات مثل (فتششمس) . وبعد ذلك أخذ يقدر الإنسان كل شيء له قوة عجيبة كالشفاء من المرض أو الجرح أو جلب الحظ أو الإتيان بعجيبة من العجائب لأنه في اعتقاده أن هذه الخصائص ، وتلك الصفات لا بد وأن تكون صادرة عن قوة فوق قوى الإنسان الطبيعية ، فالنتيجة المنتظرة لمثل هذا الاعتقاد إذن أن يتصور الإنسان الطبيعية عبارة عن مجموعة من القوى التي تعمل بلا انقطاع ، والتي تكيف حياتنا الاجتماعية تكيفاً قد يكون خيراً ، وقد يكون

شراً ، وقد يكون مزيجاً منهما . والإنسان الآناني بالطبع أخذ يحرص على الاستفادة مما يسبب له النفع ، ويدفع عنه الضرر . وللوصول إلى ذلك لجأ إلى مختلف الطرق وشتى الوسائل من داخلية كامنسة فيه أو خارجية تحيط به . فبعض الناس رأى في نوع خاص من الحيوان عوناً له يساعده على بلوغ مأربه ويقف لى جانبه لاتقاء عوادي الزمن ، وجماعة أخرى من الناس آنست إلى نبت من النباتات ، ومن ثم بولغ في احترام ذلك الحيوان أو هذا النبات حتى أصبح شعاراً لبعض الجماعات البشرية وشعاراً مقدساً . يعنى بعبارة أخرى مهد لنشأة مذهب الـ (توتوميزم) . ففي هذا النوع من الأديان نجد أن الصلات بين الإنسان والحيوان من ناحية ، والإنسان والنبات من ناحية أخرى تقوى قوة يصعب علينا تفريقها ، فينهض الإنسان بدوره ويؤثر في الطبيعة كما تؤثر الطبيعة فيه ، فيلجأ إليها ليستمد منها القوة التي تساعده على حفظ نوعه ، فاعتقد منذ القدم مثلاً أن في الماء تعيش عرائس البحر كما يعيش المارد ، والاعتقاد شائع في مصر أن البحر ملاك طاهر ، وأن الإنسان إذا ارتكب فيه منكراً ابتلى بمصيبة فادحة ، وهو إلى جانب ذلك موضع للقسم (وحياتك يا بحر يا طاهر) ، ومن ثم اتخذ الدين الإسلامى من الماء وسيلة للطهارة ، واعتقد الناس أن فيه قوة الشفاء من الأمراض أو تجديد القوى ، ومن الناس من يعتقد أنه مجلبة للحمل ، ولعل السبب الذى حمل الإنسان على مثل هذا الاعتقاد هو أنه رأى الماء يغمر الأرض المجدبة القاحلة

فما تلبث إلا أن تعود إليها الحياة ثانية فتنتج حباً ونباتاً وجنات ألفافاً .
وهذا النوع من العقيدة ما زال موجوداً حتى يومنا هذا ، فكلنا يعلم
بئر زمزم وقداستها . وفي مدافن أسيوط توجد بئر قدرة يقال إن
قطباً من الأقطاب يسكنها ويحج إليها الدهماء لمختلف الأغراض التي
سبقت الإشارة إليها . ومن ثم توجد بئر أخرى يطلق عليها بئر
يوسف إلا أن لمائها خاصية أخرى وهي الشفاء من الكساح ، وتوجد
ساقية تعرف الآن باسم (الساقية المندورة) كثيراً ما سمعت العجايز
يتحدثن عن معجزتها في الحبل . وما أعلمه عن أسيوط قد يعلم غيري
الكثير من نوعه في الأنحاء الأخرى ، وما قلته عن الماء أستطيع
قوله أو ما يشبهه في الحجر مثلاً . فالحجر الأسود تركه الإسلام قائماً
ولم يقض عليه ، والأحجار الكريمة وما يدور حولها من خرافات
وعقائد ليست بالأمر المجهول ، ومن الأحجار نحت الإنسان الأصنام
وقدسها .

مظهر آخر من مظاهر تقديس الطبيعة وهو يكون عنصراً هاماً
من عناصر القصة هو الأشجار ، فهي ظاهرة موجودة في سائر
الاديان وترجع في الأصل طبعاً إلى اعتبارها أحد مصادر الحياة
للفرد ، فمن النادر أن نجد موضعاً مقدساً أو مكاناً لولي من الأولياء
يخلو من شجرة ، فريم جاءها المخاض تحت شجرة ، ولما جاء المسيح
مصر نزلت به أمه عند شجرة ، وبمعة النبي (صلعم) كانت تحت
شجرة ، وتلقى (بوذا) الوحى عند شجرة ، ثم سدرة المنتهى ، ثم

الفاكهة المحرمة ، والأخرى المحللة ، ونبات الحياة في أسطورة
جلجشم ، ولا يخلو قبر من القبور من شجيرة ، وعند زيارة المدافن
نضع عليها سعف النخيل أو غيره رحمة للأموات ، ويحتفل
المسيحيون بأحد السعف ، والمسلمون بأربعة أبواب . وإلى جانب
الشجرة نجد بعض الأعشاب أيضاً مثل الشيح فخره يطرد الأرواح
الشريرة ، ويشقى من الحسد . وغير الأشجار والعشب نجد الحبوب
فالسيد المسيح أكل خبزاً وقال هذا جسدي ، وإذا بلغ الوليد سبعة
أيام وضع في غربال مغطى ببعض الحبوب ، والعادة جارية في أن
نعلق في منازلنا حزمة من سنابل مختلف الحبوب والبقول الجديدة
عند موسم الحصاد .

ويقدس الإنسان غير ما ذكرت من مظاهر الطبيعة «الحيوان»
اكتساباً لفائدته وتجنباً لضرره ، ففي مصر لا تقتل الطائر المعروف
باسم عصفور الجنة لأنه يحمل تحت كنفه مفاتيحها ، وفي كل منزل
من المنازل (عامر) وهذا العامر هو ثعبان يحافظ على البيت ولا
يجوز إيذاؤه ، والديانات القديمة ملأى بتقديس الأشجار والحيوانات
والدين الإسلامي يعترف بالضحية كما نقدم نحن إلى اليوم الحيوانات
كنذور للأولياء أو عند عمل الزار ، وينجر العرب الذبائح عند
القسم لأن الدم يكسب القسم قوة ويصبغه بصبغة القداسة .

أما النار فقد اعتقد الإنسان فيها منذ القدم أنها تشرذ الجن
وتبديد الظلام لذلك قدسها الزرادشتية ، والديانات الهندية .

ولم يقف الأمر عند تقديس هذه العناصر الأرضية بل تعداها إلى
الأجرام السماوية كالشمس والقمر والمشتري والشعري حيث نجد
لكل منها آلهة كما أقسم القرآن الكريم بها غير مرة . والشئ
الجدير بالذكر هنا أن الإنسان اعتبر السكان الأدنى مظهرا آخر
من مظاهر الوجود التي يجب تقديسها . لذلك نشأت عند بعض
الشعوب الفطرية هذه الفكرة فقدس الإنسان حيا أو ميتا ، فإذا
توفي فرد من أفراد قبيلة ، وكان قد أظهر إبان حياته شيئا من القدرة
في عمل من الأعمال ، وجدنا قبيلته تبقر بطنه ، وتخرج كبده
وتقسمه فيما بينها حتى يكتب لكل فرد شئ من هذه القوة التي
كانت تملأ ذلك القديس إبان حياته ، ومن هنا نشأت فكرة أكل
لحوم البشر المنتشرة عند بعض القبائل الفطرية الإفريقية . ومما تجب
ملاحظته هو أن القوة الحية في الطبيعة لا تكفي بوجودها فيها فقط
بل تتجمع ، وتكون فيما بينها عالما آخر يتجلى لنا في الحوادث التي
تقع في الوجود الذي هو عالم من الأرواح لن نستطيع أن نهيم
عليه ، ونسخره لمنافعنا أو نكبح جماحه فلا يتسبب في أضرارنا بمجرد
قوانا الجسدية العادية ، لذلك لجأ الإنسان الفطري إلى السحر ، واستعان
بأفراد قبيلته للقيام بهذا العمل ، فاجتمعت العشيرة واختارت من بين
أفرادها شخصا آنت فيه هذه القوة السحرية ، ومن ثم ولته أمرها ومع
مرور الزمن أصبح هؤلاء السحرة رؤساء للعشائر والقبائل إلى جانب
قيامهم بالطقوس الدينية والمسائل السحرية ، ولم يقف أمر الساحر

عند هذا الحد بل نراه يصبح شخصا مقدسا يتنبأ لقومه بالمستقبل ، وهو الذى أطلق عليه العرب مثلاً كاهنا ، وقد لعب هؤلاء السكهان دورا هاما فى الحياة العربية حتى جاء الأنبياء وقضوا عليهم . وفى يومنا هذا إذا مرض جاهل لجأ إلى مشعوذ فكتب له الأحجية وأحاطه بالتعاويذ ، وإذا فشل ذلك النوع لجأ إلى نوع آخر من الشعوذة ألا هو الزار . وقد علل بعض العلماء انتشار هذه العقائد الخرافية بأنها بقايا تلك الديانات الفطرية التى كانت تؤمن أيضا بالقوة الكامنة حتى فى أرواح الموتى ، وقد ساعد على تصديق مثل هذا الرأى تقدم علم استحضار الأرواح ومخاطبتها ، والشيء الذى نعرفه هو أن الإيمان بأرواح الموتى وقوتها قديم ، لذلك سمى الإنسان منذ المصور الغابرة إلى استرضائها . فقدم لها ألوانا شتى من الأطعمة والأشربة ، ونشأت مع مرور الزمن طقوس دينية خاصة بالروح والقبر كما كان الأمر عند قدماء المصريين ، وعندنا اليوم فى صورة أخرى تختلف عن السابقة بعض الاختلاف . وهذه الحالة ترينا تدريجيا كيف تطورت فكرة الروح وفكرة عدم الفناء فنحن فى مصر ما زلنا نزور القبور والأضرحة وتتوسل بالموتى لقضاء حوائجنا . لكن ليس الإنسان روحا وجسدا فحسب بل هو عالم قائم بذاته أيضا ، وقد رأينا من قبل كيف أنه امتزج بالطبيعة امتزاجا يصعب علينا انتزاعه منها ، فهو يعتقد فى الخرافات ويؤمن بما يسمى

« توتوميزم » فالإنسان من هذه الفاحية جملة أرواح لأن كل ظاهرة من ظواهر نفسه روح على حدة . فإذا نظر في الماء أو المرآة ورأى نفسه فهذه هي روح ، وإذا سار ورأى ظله فهذه روح ثانية ، وإذا نام ورأى حُلماً فهذه روح ثالثة ، وتنفسه روح رابعة ، وقوته على الحركة روح خامسة ، والنفس الذي يتركه عند الموت روح سادسة ، وهما جرا ، وتعتقد بعض قبائل جنوب غربي إفريقيا أن للإنسان أربع أرواح : روح تعيش إلى الأبد ، وثانية تتقمص حيواناً بعد موت صاحبها ، وثالثة تبقى في ظل الجسد ، ورابعة هي روح الأحلام وهي تختفي عندما يستيقظ الإنسان ، وقدماء المصريين كانوا يقدسون روحين (كا) وهي الروح التي تلازم القبر و (با) وكانت تعيش في العالم السفلي ، ونحن نعتقد اليوم فيما يسمى قرينة ، والنتيجة التي نخرج بها هي أن الموت ليس معناه القضاء النهائي على سائر الأرواح بل على معظمها فقط . أما روح حيوية الإنسان فتبقى وتقوم بعملها ولعل هذا ما يعلل لنا فكرة الاعتقاد بأن للميت من القوة في قبره ما يجعله يهيمن على كثير من الأسرار الكونية ، فنحن نعتقد اليوم أن الميت يعلم بوقوع الحوادث قبل الحى ، ونحن نتوسل بالموتى لقضاء حوائجنا ، ونحن نحسب الموتى في قبورهم حساباً ، فإذا توفيت امرأة مثلاً وتزوج بعلمها أخرى وجب على المرأة الثانية ألا تزور قبر الأولى حتى لا تدب الغيرة في المتوفاة ، وإن كانت قد تركت خلفها أطفالاً فإن أقاربها يحضرون الأطفال معهم لاعتقادهم أن أمهم ستسهر في

قبرها برؤيتهم . ونحن المسلمين ما زلنا نقدم اليوم مختلف ألوان
الأطعمة والأشربة — على روح الأموات .

فالإنسان إذن لا يموت كله و (أنا) لن تفنى ، وفي الصعيد
يعتقد القوم في شيء يشبه هذا ، فإذا قتل شخص فإن روحه تظهر
عند القيلولة أو عندما يرخي الليل سدوله وفي هيئة القليل وتلفظ
بنفس العبارات التي نطق بها القليل عند موته ، ويطلق القوم على
هذا الشبح (الصاروخ) . وسواء صحت هذه القصة أو لم تصح فهذا
لا يهمنا الآن والذي يعنيننا هو أن فكرة عدم الفناء ما زالت حية
متأصلة في الشعب .

ولم يقف تقديس الروح عند هذا الحد بل نرى جسد الإنسان
ينظر إليه كجسد للروح فيكتسب قداسة وهمية ، وكل شيء فيه
حتى الأظافر والشعر . وقد ذهب الإنسان بعيدا فقدس حتى
ما يلامس الجسد وهذا ما يفسر لنا السر في استخدام السحرة الشيء
الذي يسمونه (ريحة) وسواء كانت هذه الكلمة نسبة إلى رائحة
الإنسان أو روحه فتركيب الكلمتين من أصول واحدة يفيد
ولا شك قوة العلاقة بينهما على الأقل إن لم يكن مدلولهما واحدا .

من هذا العالم استمدت القصة عناصرها وأمعنت في تكييف
نفسها بهذا العالم حتى أصبحت وكأنها صورة مصغرة منه ، فبطل القصة
عنصر هام من عناصر القوة كما تعرضه لنا وقد امتزجت سائر عناصره
بالعناصر الطبيعية المختلفة التي عرضتها من قبل والتي بينت علاقاتها

بالفرد وعلاقات الفرد بها . ولا يقف الأمر عند هذا الحد بل نجد
القصة تمعن في تفصيل هذه العلاقات ، فطورا تجعل البطل المغوار
الذى قتل المئات وأمر الآلاف يضعف أمام طائر من الطيور
أو حيوان من الحيوانات سلطه عليه ساحر أو ساحرة بل نكاد
لا نقرأ قصة إلا ونجد بطلها قد مسح قردا أو كلبا والقصة قد
لا تقنع بهذه العوامل الأرضية فتحلق في الاعلى حيث الأفلاك
والسلائكة وتهبط في الاسافل حيث الجن والشياطين ، وكثيرا
ما نجدها تغوص في أعماق المياه حيث المارد وعروس البحر . والقصة
في جميع هذه الحالات صورة حقيقية لهذه العوالم ووصف بديع لموقف
الإنسان منها . فمثلا إذا قرأنا القصة المنتشرة اليوم بيننا والمعروفة
باسم (عجيب وغريب) لرأينا سائر العناصر السابقة ممثلة فيها ؛ فالقصة
تلخص في أن ملكا كان يدعى (كندر) ولد له ابن اسمه (عجيب)
وحدث أن هذا الولد صنع ما أغضب عليه والده ، واضطره إلى سجنه
فما كان من (عجيب) لما خرج من السجن إلا أن قتل والده وجلس
هو على عرشه . وفي إحدى الليالي رأى (عجيب) حلما أزعجه فاستدعى
المعبرين والمنجمين فأخبروه أن أخا له من والده سيقتله وينتقم لوالده
منه ، وبعد بحث طويل علم أن إحدى سراري والده حامل فأراد
التخلص منها فأرسلها مع بعض خدمه لإلقائها في البحر فأشفق
الخدم عليها وجاءوا بها إلى غابة وتركوها ، وهناك وضعت غلاما أسمته
(غريب) وحدث أن مرت سيارة من العرب فأشفقت عليها وتزوج

أحد أفرادها واسمه (مرداس) من هذه الجارية وأخذها وابنها إلى حيث يقيم ، وقد ولد له منها ابن اسمه (سهم الليل) كما كانت له من امرأة أخرى ابنة تدعى (مهديّة) وكانت آية في الجمال . وحدث أن عدو المرداس هجم يوما على عشيرته أثناء غيابه فأبلى (غريب) بلاء حسنا إذ انتصر على العدو واسترد سائر الأموال التي سلبت وعاد بمهديّة بعد أن سبيت وهو ينشد قائلا :

أنا المعروف في يوم المجال وجن الأرض تفزع من خيالي
ولى سيف إذا هزت يميني تبادرت المنية من شمالي
ولى رمح إذا نظروا إليّ يروا فيه سنانا كالهلال
وأدعى بالغريب شجاع قومي ولا أخشى إذا قلت رجالي
ويحدث بعد ذلك أن غريبا يغرم بمهديّة وتولع هي به ويتراعى ذلك الغرام إلى أذنى مرداس فينكر على الاثنين هذا الحب ويقرر أخيرا الانتقام من غريب ، فيخرج مرداس يوما ما ويكنى لغريب في الطريق ، وبينما هو في مكانه إذ بخصمه القديم أقبل طالبا الثأر فيقع مرداس ورجاله في الأسر ، ويسرع (سهم الليل) إلى غريب ويقص عليه خبر رغبة مرداس وأنه كامن له ليقته ، ويرجع غريب ويجد عدوه ورجاله معتقلين فيفكهم غريب من الأسر على أن يزوجه مرداس ابنته مهديّة . لكن مرداس يخلف وعده ويتنكر ثانية لغريب ويفكر في طريقة يتخلص منه بها فيطالبه ، كمهر لمهديّة ، أن يقتل له « غول الجبل » ذلك الغول الذي لا تحمله الخيل لعظم جثته

والذى إذا أراد أن يلاقى عدوه اقتلع شجرة عظيمة وضربه بها .
لكن يحدث أن ينتصر غريب عليه وعلى أولاده ، كما دخل غول الجبل
وأولاده فى الإسلام . لمة إبراهيم الخليل . ولما تم الأمر لغريب علم
أن غول الجبل كان قد غنم وأولاده فتاة جميلة جدا تدعى (نخر تاج)
وهى كريمة سابور ملك الفرس ، وهنا يظهر فروسية غريب فيقرر
إرجاعها إلى أبيها معزة مكرمة ، وتذكر القصة سفر غريب ونخر تاج
وحاشيتها ووصول الجميع إلى فارس واستقبال والدها لها ، وحفاوة
بغريب ، ورغبة نخر تاج فى الزواج بغريب ، وقبول سابور على أن
يقدم غريب رأس غريمه وعدوه (الجرقان) مهرا . هذا ما كان من
أمر غريب ، أما مرداس فإنه لما علم بالتوفيق الذى صادفه غريب
خاف ورحل إلى الكوفة حيث يملك (عجيب) الذى كان قد أبدى رغبته
من قبل فى الزواج بمهدية ، ويسير غريب على رأس جيش من
الفرس والعرب لمحاربة (عجيب) . وهنا يظهر عنصر جديد فى القصة
وهو عنصر الخادم الأمين (سيار) خادم عجيب الذى استطاع سرقة
غريب بعد أن بنجه ، وسيار هذا هو الذى تمكن فيما بعد من إنقاذ
سيده عجيب بعد أن وقع فى يد غريب ، وتدور رحى الحرب بين الأخوين
عجيب وغريب وينتصر غريب ويجلس على عرش الكوفة ، ويهرب
عجيب ، ويبحث غريب عن مرداس فيعلم أن (جرقان) قتله وسبي
نساءه ، فينتقم غريب من جرقان ويحصل على مهدية . وتستمر القصة
فتحدثنا كيف أن عجيباً لما هرب من وجه أخيه قصد إلى اليمن حيث

طلب من ملكها مساعدته لاسترداد ملكه ، وتدور بين الفريقين ممالك ينتصر فيها غريب وأخوه « سهيم الليل » ويرى غريب حليماً غريباً فيقرر أن يقوم برحلة وبرفقته سهيم الليل ، وينام الاثنان تحت شجرة فيأتي ماردان عظيمان أحدهما له رأس كلب والآخر له رأس قرد ، وهما كالنخلة ولهما شعر مثل أذناب الخيل ، ومخالب كمخالب السباع . وكان السبب في ذلك أن ملكاً من ملوك الجن اسمه (مرعش) كان له ولد اسمه (صاعق) يحب جارية من الجن اسمها (نجمة) وكان (صاعق) و (نجمة) مجتمعين في ذلك الوادي وهما في شكل طائرين . وحدث أن غريباً وأخاه ظناهما طائرين فرمياها بنشاب فأصابا (صاعقاً) ، فحزنت (نجمة) وخطفت حبيبها وطار . فلما نظر (مرعش) إلى ولده ورآه في هذه الحالة غضب غضباً شديداً وأرسل الماردين لإحضار غريب وسهيم الليل . وتستمر القصة فتحدثنا عن وصولهما إلى ملك الجن وتصف هذه الرحلة والصدقة التي قامت بين (مرعش) وغريب ، وكيف أنه أطلعه على بلاده ، وأهداه سيف يافث بن نوح وجوادة طيارا إذا ركب طار به في طبقات الجو . وتموطد العلاقة بين ملك الجن وغريب حتى اعتنق الملك الإسلام فغضب ابن عمه (برقان) فتقوم بين ملكي الجن حرب يملو فيها غريب بلاء حسناً ، وتنتهي بانتصاره وانتصار (مرعش) . ولا تقف القصة عند هذا النصر بل تحدثنا عن عودة غريب إلى بلاد العراق ثانية وبرفقته الماردان (كيلجان) ،

و (قورجان) ، ويخوض غمار حروب أخرى كثيرة بعضها ضد
الإنس وبعضها ضد الجن وبعضها في بلاد العرب والبعض الآخر في
الهند وغيرها ، وتنتهي بصلب «عجيب» . لكن يحدث بعد هذا أن
ساحرا سحر ماردا وصيره عصفورا ، وتمكن هذا العصفور من أخذ
غريب وإلقائه في البحر ، وينقذ من الموت إلا أنه اقترب ذنبا آخر
فسحرته امرأة وصيرته قردا ثم عفت عنه وأعادته إلى حالته الأولى
وتختم القصة بمعركة تدور بينه وبين قائد آخر يدعى «مراد شاه»
ظهر فيما بعد أنه ابنه من نحر تاج .

تكوين القصة

حتى عهد قريب كانت القصة في أوروبا كما مهملا لم يعن بها أديب ، ولم يلتفت إليها مؤرخ ، لذلك ظلت الآداب الأوربية قرونا عديدة محرومة من القصة بعيدة عنها في الوقت الذي كان فيه الشرق قد سما بها وأوجد فيها المجاميع الكثيرة كجموعة (بنتشتترا) في الهند وألف ليلة وليلة في العالم الإسلامي ؛ إلى جانب تلك المجاميع التي تركها البابليون الآشوريون وقدماء المصريين . فإذا كان الأمر كذلك فلا غرابة إذن إذا رأينا الشعوب الشرقية خاصة السامية منها أعنى شعوب الجزيرة العربية وبعض أجزاء أفريقيا تستعين بالقصة في أغراضها الأدبية كما اتخذتها كتبنا الدينية وسيلة من وسائل الاقناع والدعاية .

لكن الأمر لم يقف عند هذا الحد فنحن نعلم أيضا أن العلاقات بين الشرق والغرب لم تكن طوال هذه العصور التاريخية واهية ضعيفة ، فتبادل المنافع وتزاوج الثقافات والاشتباك في الحروب أدى إلى تلقيح العقلية الأوربية والآداب الغربية بالشئ الكثير من تراث الفكر الشرقى . فقد عا أخذ الغرب عنا أبجديتنا ، ومن ثم اعتمد المسيحية ، فانتقلت إليه عن طريقها ثمار العقلية السامية سواء

كانت هذه الثمار وثنية أو إسرائيلية أو مسيحية . ولست أقصد من هذا أن هذه هي المرة الأولى التي غزت فيها العقلية السامية الغرب ، فنحن نعلم أن البابليين الآشوريين وقدماء المصريين كثيرا ما صدروا بعض الحاصلات الثقافية إلى اليونان والرومان حتى ما كان منها متصلا بالدين والعقائد . لكن هذه العلاقات الثقافية لم تكن في الوفرة والغزارة التي حدثت عن طريق الغزو الديني المسيحي . فالكتاب المقدس ، خاصة ذلك الجزء الخاص باليهود ، غني جدا بالشعر والنثر فيه في التشريع الخروج ولاويون والعدد والثنية ، وفيه في التاريخ التكوين ويشوع والقضاة وصموئيل والملوك وأخبار الأيام وعزرا ونحميا ، وفيه للقصة يونس وروث واستير ، وفيه في الحكمة الأمثال وأيوب والجامعة ، وفيه في النبوءات أشعيا وأرميا وحزقيال وصغار الأنبياء ودانيال ، وفيه في الأغاني المزامير ونشيد الأناشيد والمرثي . فهو والحالة هذه سجل فاخر غني للعقلية السامية وضع في عصر يبلغ من عمر الدهر نحو ألف عام .

انتقلت هذه الثروة العقلية إلى أوروبا فبعثتها بعثا جديدا كما انتقلت إليها في العصور الوسطى عن طريق السلم والحرب الحضارة الإسلامية بفنونها وآدابها ، ووجدت القصة الشرقية طريقها إلى أختها الغربية فاستغلها القصاص والأدباء والمصورون استغلالا عظيما كما أخذ جماعة من علماء الغرب يعنون بجمع هذه القصص وتدوينها ؛ فظهرت في إيطاليا مثلا مجموعة (سترابارولا) (١٥٥٠ — ١٥٥٣)

و (بازيل) (١٦٣٧) ، وفي فرنسا (برولت) (١٦٩٧) و (جرفين دلتوى) (١٦٩٨) ، وفي ألمانيا (ميزويس) (١٧٨٢ — ١٧٨٦) والاخوان (جريمه) (١٨١٢ — ١٨١٤) و (١٨٥٦) ، وفي جوتلند (كريستنسن) ، وفي روسيا (أفاناسيو) ، وصقلية (بيترا) والدينمارك (جروندفيج) ، والنرويج (اسيورنسون) .

ولم يقف الأمر عند هذا بل نجد أستاذا من أساتذة « فيمر » وهو (ميزويس) يضع القصة العالمية (شنيفيتش) التي ترجمت إلى سائر اللغات الغربية ، وكذلك قصة (شفانيونج فراو) . وغير (ميزويس) نجد (جوته) شاعر ألمانيا الخالد يوجه عناية فائقة للقصة فنجدها في « آلام فرتر » و (جوتز فون برلشينجن) . ولم يكن هذا الشاعر مرردا في قصصه صدى القصص القديمة التي عرفها عن أمه بل خلق أخرى فيها الكثير من الدعابة والسخرية . وإذا ذكرنا (جوته) و (ميزويس) وجب علينا ألا نهمل (لودفيج تيك) فقد نحا بالقصة نحا جديدا ؛ إذ مزج بين القصص المختلفة حتى ولو كانت تنسب لشعوب مختلفة ليميز العناصر المشتركة ويقوى مواطن الضعف التي قد تبدو في قصة من القصص .

واختلف العلماء أيضا حول الوطن الأصلي للقصة كما اختلفوا حول مصدرها ؛ فالعالم السنسكريتي (تيودور بينفي) الذي نشر عام ١٨٥٩ مجموعة القصص الهندية المعروفة باسم (بنشنترا) يقرر أن الهند هي المهد الأصلي للقصة وذلك لحاجة الديانة البوذية الشديدة

إليها كوسيلة من وسائل تنمية الخيال وتهذيبه . وقد ظلت فكرة هذا العالم سائدة زمنا طويلا حتى ظهر أمثال (س . ب . تيلور) و (أندرو لنج) وغيرها من العلماء الذين عارضوا فكرة (بينفى) وقاوموها . فالبجاجة (تيلور) مثلا قام بدراسة اللغات القديمة ، والعادات البشرية المختلفة وقد انتهى به بحثه إلى أن سائر البشر يشتركون في كثير من مظاهر العقائد الدينية ، فهم يؤمنون بالأرواح الخيرة والأرواح الشريرة كما يؤمنون باللعنة والبركة ، الصحة والمرض ، الفناء والبعث ، اليقظة والحلم ، والقوى المختلفة الكامنة في الحيوان والنبات والجماد . فهذه العقائد وتلك التقاليد نجدناها عند الشعوب البدائية وتلك التى بلغت من الثقافة حظا كبيرا ، عند سكان المناطق الاستوائية والأقاليم القطبية ، فهى إذن ملك البشر وإن اختلف لونه وتبلبلت أسنته . فإذا كان الأمر كذلك والقصة كما نعلم هى المرآة التى تنعكس عليها النفس البشرية بما ورثته من تقاليد العصور وعقائد الدهور أصبح من العسير القول إن للقصة وطنا بعينه كما ذهب (بينفى) . وكل ما فى الأمر هو أن هذه العوامل النفسية التى تتفق حيناً وتختلف حيناً آخر تنتج نوعا من القصص تجمع بينه جامعة النفسية البشرية ، وتفرق بينه العوامل الإقليمية المحلية . ومثل القصة فى هذه الظاهرة مثل المناخ فهو واحد فى قطرين أو أكثر طالما يخضع القطران أو الأقطار لمعامل جغرافية واحدة أو متشابهة . لكن إذا تعددت التضاريس وتنوعت اختلافات

الطقوس وتشعبت كذلك الحال مع الفاكهة فهي هي حيث تتوفر
التربة والهواء والشمس والماء . وزعيم هذا الاتجاه الجديد الذي
أنكر على (بينفى) قوله إن للقصةوطنا بعينه وإن هذا الوطن هو
بلاد الهند هو العالم (بديه) الذي يتحدث عن تعدد أوطان القصة .
وغير نظريتي (بينفى) و (بديه) نجد العالم (جريمه) يأتي
برأى جديد وهو أن قصصنا الشعبي عبارة في الواقع عن بقايا الأساطير
والملاحم التي سادت في العصور البعيدة جدا ، وإن كانت قد أهملتها
الطبقات الخاصة إلا أن العامة احتفظت بها بعد أن كيفتها ببيئةها
الجديدة . والواقع أن هذه النظريات مجتمعة تتعاون معا في سبيل
كشف القناع عن القصة وتكوينها .

من الأساطير السامية

عالجت فيما سبق القصة عامه وتحدثت عن مصدرها وتكوينها وماهيتها في الآداب عامة . والآن أنتقل قبل أن أعرض لقصصنا العربي إلى الحديث عن الأساطير السامية عامة للعلاقة القوية بينها وبين قصصنا سواء ذلك النوع الرفيع الذي طالما تحدثت عنه كتبنا الدينية أو هذا النوع الشعبي الذي أفردت له هذا الكتاب .

لا شك في أن طبيعة الحديث عن الأساطير السامية تتطلب منا قبل كل شيء أن نتعرف إلى هذه الأسرة ووطنها ، والشعوب التي تنطوي تحتها وطبيعتها ، ومدلول اللفظ ومصدر التسمية . سامي نسبة إلى سام أحد أبناء نوح الثلاثة ، والساميون هم الشعوب التي انحدرت منه أو من نسله . وهم الذين قطنوا ويقطنون الجزيرة العربية والقسم الأكبر من القارة الإفريقية إلى يومنا هذا ، والتاريخ يحدثنا أن من بين تلك الشعوب العربية أمما مكنتها بيئتها من إقامة حضارة وخلق ثقافة بواتها في العصور التاريخية الأولى مكانا عليا ، ومن تلك الحضارات ، البابلية الآشورية ، والمعينية السبائية ، والآرامية ، والكنعانية ، وغيرها . وقد استطاع رجال اللغات السامية كشف القناع عنها بعد أن أنطقوا الأحجار ، وفهموا لغة الخرائب والآثار ،

فأزالوا عنها الحجب ، وأماطوا عن ثغورها اللثم ، فتبدت لنا في صورتها الطبيعية على خير ما تبدو حضارة أرسلت في الألف الثاني قبل الميلاد أنوارها إلى اليونان ومن جاورهم من الشعوب الأخرى . حضارات هذا شأنها حضارات أنتجت عقليات أمم اختص الله أبناءها بالنبوة ، ومنهم من حظاه بالنبوة ، وأنزل على ألسنتنا السامية دياناته السماوية الإسرائيلية ، والمسيحية ، والإسلام جديدة بأن نجد فيها من الأساطير ما يربط بين ماضينا وحاضرنا لأن صلة الشعب بأساطيره صلة جسدية روحية أقول جسدية لأنها وليدة بيئتنا التي نمت فيها أجسادنا وترعرعت ، والإنسان كما قيل بحق « ابن بيئته » أما الصلة الروحية فلكونها بنت خيالنا وصورة لمعتقداتنا ووليدة نظرنا إلى الحياة وتقديرنا للأمور وحظنا من المثل . لذلك إذا كتبت اليوم في الأساطير السامية فإنما أعرض مرآة تنكسر عليها أشعة تراثنا في فجر التاريخ فتشعها ثانية فنراها في دياناتنا الوثنية والسماوية . وأساطيرنا بالرغم من تنوعها تدور حول فكرة واحدة وهي إمكان السمو بالإنسان وإبلاغه مرتبة الآلهة فيحيا الحياة الأبدية بعد أن كتب عليه الموت وحرم نعمة الخلود . ولذلك كانت بطولة أساطيرنا وملاحمتنا غير قاصرة على الآلهة ، إذ شاركهم فيها نفر من بنى البشر الذين بلغوا أو كادوا يبلغون مرتبة الآلهة ، فانتقلوا من الحياة الفانية إلى الحياة الباقية حيث يحيمون حياة الأبطال في جزيرة الأبرار . ولعل أقدم شعب من شعوب الجزيرة العربية نستطيع أن نكتب

اليوم أساطيره كتابة الثقاه هو الشعب البابلي الأشورى ، فأساطيره ترجع إلى الفترة الواقعة بين الألف الرابع والثانى قبل الميلاد وأقدمها هى تلك التى عرضت للخلق والتكوين فأجادت وقدمت لنا صورة تكاد تتفق تماماً مع تلك التى وردت فيما بعد فى كتبنا المقدسة . أقول تكاد ، وذلك لأن الأسطورة حرصت على إظهار بعض العناصر التى لا نجدها فى التوراة أو القرآن الكريم ، وهذا التفصيل يلقي ضوءاً قوياً على عناصر الخلق وتكوينها . فأسطورة التكوين البابلية التى كانت تغنى فى اليوم الرابع من عيد رأس السنة تقول : إنه فى البدء قبل خلق السموات والأرض كان عنصر الحياة موجوداً ، وهو عبارة عن مزيج من ذكورة وأنوثة ، وكان عنصر الذكورة يتجلى فى الماء العذب ويسمى (ابشو) ، والأنوثة فى الماء المالح ، وتسمى (تيامة) ، فلما تم المزج ولد (مومو) وهو عبارة عن «الكلمة» ، وعن هذا الثالوث المكون من الأب والأم والابن أو «الكلمة» نشأ المذكر (لكسمبو) والأنثى (لكسامو) ، وعنهما نشأ (انشار) أى العالم العلوى ، و(كيشار) أى العالم السفلى . ومن ثم نجد ثالوثاً آخر من (انو) إله السماء و(والليل) إله الأرض و(ايا) إله الحكمة والمياه . وهم الذين يحكمون السموات والأرض والمياه ، فنرى هنا ثلاثة عناصر من عناصر التكوين أو الوجود التى عرضت لها كتبنا السماوية وعبر عنها القرآن الكريم أحسن تعبير وأقصد بهذه العناصر (الماء) وفكرة (الزوجية) و(الكلمة) .

ثم نذهب الأسطورة بعيدا فتحدثنا عن نزاع قام بين كبير الآلهة (ابشو) وصغارهم ، ويتطور هذا النزاع إلى حرب ينتصر فيها (مردوك) على (تيامة) التي جمعت أعوانها وأرادت التآمر (ابشو) الذي قتله (ايا) ، وبعد أن تم النصر لمردوك فسكر في القيام بعمل عظيم ، فعاد إلى جثته (تيامة) وشطرها شطرين صنع من أحدهما السماء ومن الآخر خلق الأرض . وبعد أن تم له ذلك قسم العام إلى اثني عشر شهرا ، وأخذ في خلق الأجرام السماوية والنباتات والحيوانات . ثم توج عمله بخلق الإنسان الأول من الطين والدم الذي سال منه عندما قبض عليه في العالم السفلي وقضى الآلهة بإعدامه فسيق إلى جبل ومعه مجرم ونفذ في الاثنين حكم الإعدام إلا أن إلهة جاءت وغسلت قلبه ، وفارقت روحه الحياة وظلت جثته فوق الجبل تحت أعين الحراس مدة ثم دفنت في قبر ، وبعد مضي عدة أيام جاءت امرأة تبحث عنه فلم تجده وعلمت أنه بعث ثانية .

هذه هي خلاصة موجزة لأسطورة التكوين ، والآن أنتقل إلى أسطورة البطل (جلجمش) التي تعتبر أشهر أسطورة عرفتها الآداب السامية . والذي حدث أن هذه الأسطورة لاقت في الألف الثاني قبل الميلاد رواجاً عظيماً لا في الآداب السامية فحسب بل في عالم الأساطير الأجنبية أيضاً ؛ فترجمت إلى لغات متعددة ، وعثر على نصوصها في دار محفوظات الدولة الحثيية ، وفي لغات أخرى من لغات آسيا الصغرى . ولعل أكثر الآداب تأثراً بها هي العبرية واليونانية .

وموضوع هذه الأسطورة يدور حول محاولة (جلعشم) الحصول على الحياة الخالدة وبلوغ مرتبة الآلهة . ونستطيع أن نقسم أسطورة إلى ثلاثة أقسام :

الأول — يبين لنا كيف التقى (جلعشم) بـ (انجيدو) وأصبحا صديقين .

الثاني — يحدثنا عن مغامرات الاثنين حتى موت (انجيدو) .

الثالث — محاولة (جلعشم) بلوغ الحياة الخالدة وأسطورة

الطوفان

فبعد مقدمة كتلك التي نجدها في الأوديسا تعدد فيها أعمال (جلعشم) وبطولاته نجد أنفسنا في مدينة (اوروك) (الان ورقا) التي يحكمها البطل جلعشم الذي ثلثاه إلهى وثله بشرى ، والذي كلف شعبه يوما ما بناء سور المدينة ومعبدها . فشق هذا العمل على السكان فتذمروا ولجأوا إلى الآلهة يرجون رفع الظلم عنهم ، فقرر الآلهة خلق كائن يشبه جلعشم قوة لينافسه في سلطانه ، ويثنيه عن إتمام العمل الذي سخر شعبه فيه . أما هذا الشخص الذي خلقه الآلهة فاسمه (انجيدو) وكان جلده مكسوا بالشعر ، وكان يحيا حياة الفطرة والسذاجة ، فيرعى الحشائش مع الغزلان ، ويشرب حيث تشرب البهائم . فقامت بينه وبين تلك الحيوانات صداقة ومودة حتى إنه كان يزود عنها الصيد إذا هم باقتناصها . فحنق الصياد عليه وأراد الإيقاع به وفكر ثم فكر وأخيرا قر قراره أن يذهب إلى (اوروك)

ويتفق مع عاهر من عاهرات المدينة على معاونته ، فطاوعته وذهبت معه حيث يقيم (انجيدو) والتقت به وراودته عن نفسه وأقامت معه ستة أيام وسبع ليالٍ لاحظ بعدها أن الحيوانات نفرت منه . واقترحت العاهر أن يترك حياة البرارى والمراعى ويعود معها إلى (اوروك) . تبعها (انجيدو) بعد أن علمته كيف يأكل ، وكيف يشرب ، وكيف يلبس ، وكيف يتطيب . دخل (انجيدو) المدينة واتفق أن (اوروك) كانت فى ذلك اليوم لابسة حلة العيد . وبينما كان (جليشمش) يهيم بدخول المعبد إذ به (انجيدو) يعترضه ويقوم بين البطالين صراع عنيف ينتهى بانتصار (جليشمش) الذى مديده وصافح خصمه . ونشأت بين الاثنين صداقة حميمة ، ولم يفرق بينهما إلا الموت . وهنا ينتهى القسم الأول بعد أن نقرأ وصفا جميلا حول رحلة (انجيدو) إلى العالم الآخر .

أما القسم الثانى فيتحدث عن مخاطر الصديقين فى غابات الأرز الجميلة حيث يسكن الجبار (خومبابا) الذى صرعه كما يصف لنا غرام الإلهة (عشترت) بجليشمش لبطولته واحتقار جليشمش لها ، والنزاع الذى قام بينهما وانتهى بانتصاره عليها . لكن كل هذه الانتصارات لم تحل دون تسرب الحزن إلى نفس جليشمش لوفاة صديقه (انجيدو) هذه الوفاة التى دفعت جليشمش إلى التفكير فى النجاة من هذا الموت الذى خطف صديقه كما شق عليه أيضا أن ينتقل بعد حين إلى عالم الأموات الذى وصفته روح (انجيدو)

وصفا مخيفا ، وهنا تنتقل بنا الأسطورة إلى القسم الثالث الذى يصف محاولة جليشم بلوغ مرتبة الآلهة أو الخلود ، فنراه يفكر فى جده (أوتنايشتم) الذى كان آدميا ومن ثم وفق وصار إلها . وكان هو الوحيد الذى نجا من الطوفان وهو يعيش فى جزيرة ملأى بالخدائق الغناء تعرف بجزيرة الأبرار . يصمم جليشم على الذهاب إلى جده يسأله الطريق الذى يجب عليه أن يسلكه ليبلغ غرضه ، فتحدثنا الأسطورة أنه اخترق كثيرا من الصحارى والقفار ، والتقى بالأسد وغيرها من الوحوش الضارية التى نازها جليشم وانتصر عليها ، ومن ثم بلغ جبال (مارس) حيث تلتقى السماء بالعالم السفلى . ويقوم عند الملتقى اثنان من البشر جسدهما جسد عقرب ، ومن الغريب أن هذين الكائنين رحبا بمقدمه وزوداه بكثير من النصائح الثمينة التى تساعده على بلوغ جزيرة الأبرار . وبعد رحلة طويلة اخترق فيها بلادا حالكه الظلام ، وصر بجنات ثمارها أحجار كريمة ، وعبر بحرا سام مأوه ، وصل إلى حيث يقيم جده وقص عليه قصته ورجاه أن يحدثه عن كيفية نجاته من الموت . لكن جده يرفض فى أول الأمر ويخبره أن الموت فرض على كل كائن على وجه الأرض ، فيقوم جدال بين الاثنين حول صحة هذا الرأى محتجا جليشم على بطلانه بجده الذى كان فى الأصل بشرا ومن ثم صار إلها . وبعد جدال عنيف نجد (أوتنايشتم) يقص على حفيده القصة الآتية التى كانت سببا فى بلوغه مرتبة الآلهة .

قبل خمسة آلاف سنة عقد الآلهة البابليون اجتماعا قرروا فيه
عقوبة سكان مدينة (شوروباك) التي عصى أهلها آلهتهم وأغضبوهم .
وكانت العقوبة عبارة عن طوفان يرسله الآلهة فيقضى على الحرث والنسل .
لكن الآلهة (أيا) إله الحكمة ، وصديق البشر يعلم أن من بين
سكان المدينة رجلا حكيما عرف برجاحة العقل وعمل الخير وهو
(أوتنايشتم) ، وليس من العدل أن يلاقى هذا الرجل حتفه مع
الكفرة الفجار ، لذلك تألم (أيا) وأخذ يسعى لإنقاذ هذا الحكيم
المتدين لكن كيف السبيل إلى إنقاذه وقوانين الآلهة لا تبيح لأحد
منهم إفشاء أسرار جلساتهم . ويفكر (أيا) ويتدبر ، وينتهي به
تفكيره إلى الذهاب حيث ينام (أوتنايشتم) في كوخه المصنوع
من القنا فيتحدث (أيا) إلى حائط الكوخ وللحيطان كما يقال
آذان ، فيسمع (أوتنايشتم) حديث (أيا) ويعلم كل ما جرى في
اجتماع الآلهة دون أن يتهم (أيا) بتهمة إفشاء أسرار الآلهة .
ويذهب (أيا) بعيدا فينصح (أوتنايشتم) بما يجب عليه عمله ،
وهو أن يقوم لساعته ويصنع لنفسه فلكا يعصمه ويعصم أهله
وعشيرته ونفرا من العمال والصناع وبعض الحيوانات المنزلية ، وذهبه
وفضته . وبعد أن تمت الاستعدادات أصدر الإله (شمس) أوامره إلى
السحب فتمتجمع في السماء ويرعد الرعد ويبرق البرق وتهطل السماء
مدرارا ، فيدخل (أوتنايشتم) ومن معه الفلك وتجرى السفينة
ويعطى إله الشمس الإشارة لآلهة الطوفان . وهنا نرى الخيال العربي

البابلي غنيا خصباً إذ يصور لنا إله البرق والرعد (رومان) ممتطياً
صهوة الرعد ، وخلفه حاشيته ، وأمامه رسولان يستوي عندهما
السهل والوعر ينزعان سوارى السفن ويطرحان كل ما يعترضهما
أرضاً وخلفهما آلهة العالم السفلي يلوحون بمشاعلهم فيبرق البرق
ويرعد الرعد ويهطل المطر وركب (رومان) يسير . والآن نرى
الخوف والهلع والكرب والفرع وشبح الموت يخيم على سائر البشر ،
لكن شاعرنا العربي القديم لا يقف خياله عند هذا الحد ، بل نراه
يسلك ناحية أخرى تترك في النفس أثراً أشد وأقوى فهو يخلق في
السموات ويترك الأرض فيصور لنا الآلهة وقد استولى عليهم الذعر
فيتصايحون ويتطايرون وتضيق بهم السماء الدنيا فيلتمسون إلى العليا
سبيلاً ، والرعد لم يقف رعده ، والبرق لم ينته وميضه ، والسماء لم
تجس ماءها . لكن بينما نرى هذه الصورة في ركن من أركان
السماء إذ بنا نبصر في ناحية أخرى من نواحيها آلهة الطوفان فرحين
مغتبطين لأنهم أطلقوا عوامل التخريب من أوكارها . وفي اليوم
السابع والسابع فقط أفلعت السماء وابتلعت الأرض الماء ، واستوت
الفلك على جبل (نميصير) حيث بقيت عليه سبعة أيام ولم يجرؤ
(أوتنايشتم) على الخروج لأن السكوة التي في الفلك لم تكن من
السعة بحيث يستطيع بواسطتها أن يتحقق من جفاف الأرض ، فلجأ
إلى حيلة من حيل الملاحين في العصور الأولى التي كانوا يتبعونها

لمعرفة اليابسة ، فأطلق الطير ، والطير بغريزته يمم شطار الأرض
فيهتدى بواسطته الملاح التائه . أرسل (أوتنايشتم) الحمامة فعادت ،
والسنونو فرجعت ، أما الغراب فلم يعد ، ففتح الباب وهبط ومن
معه ، وقدموا القرابين شكرا للآلهة الذين تساقطوا عليها
تساقط الذباب .

نجا (أوتنايشتم) ومن معه فسر (أيا) وغضب (الليل)
الذي كان يسره هلاك الجميع فيدور بين الآلهين حوار لطيف جميل
يفتصر فيه (أيا) . وذلك لأن نجاة هؤلاء انتصار للعدالة الإلهية ،
فالبريء لن يؤخذ بذنب المسيء . نجا (أوتنايشتم) فأصلح الخطأ
الذي وقع فيه (الليل) وخدع به الآلهة وأصبح الآن من الممكن
أن تعمر الأرض ثانية من نسل الناجين ، وتعود إليها حضارتها
بفضل نجاة العمال والصناع . ولا شك في أن عمار الأرض وقيام
الحضارة وبعث العبادة وتقديم القرابين وما إليها من الأمور التي
يفرح لها الآلهة لذلك اعترف (الليل) بخطأه وانتصر عليه (أيا)
وأثيب (أوتنايشتم) وزوجه ورفعا إلى مرتبة الآلهة .

وما كاد يفرغ (أوتنايشتم) من سرد قصته على (جليشم)
حتى ألح عليه الأخير أن يخبره عن طريقة بلوغ الخلود ، وبعد
لأى ما أخبره أن في قاع البحر نبتة ترجع الشيخ صبيا فإن حصل
عليها وأكلها بلغ مراده . ففاص (جليشم) عليها وأخرجها ،
وعوضا عن أن يأكلها أراد أن يحملها إلى مدينته ليطعم منها سائر أفراد

شعبه . لكن حدث أن نزل يغتسل في البحر فجاءت حية وأكلت
النبته فبلغت هي الحياة الأبدية . وذلك بإلقائها من وقت لآخر جلدها
والاستعاضة عنه بجلد آخر يكسبها الشباب ، ويعيد إليها قوتها .
لذلك اتخذها الأطباء العرب البابليون شعارا لهم وعندهم انتقلت إلى
سائر أنحاء العالم ، وما زالت حتى يومنا هذا رمز الطب والأطباء .
أما (جليشمش) فقد عاد إلى قومه حزينا كئيبا .

أدرك (جليشمش) أن الموت لا بد لاحقه ، وأدرك أيضا أن
الحياة فانية والموت آت ، وعرف أن الحياة كفاح وجهاد وكل ما في
الوجود من قوة لن يؤخر الأجل إذا حانت ساعته ، ولكن يقين
الإنسان بالموت يجب ألا يثنيه عن الجرى وراء السكال .

فصحة برج بابل

أو قصة اللغة يدل اسمها على وطنها أو على الوطن الذي يعتقد أنها نشأت فيه . في الإصحاح الحادى عشر من السفر الأول من أسفار التوراة نقرأ رأيا خاصا باللغة وأصلها لا من حيث هى توقيف ووحى أو اصطلاح وتواطؤ ، بل من حيث إنها ترجع إلى أصل واحد أو أصول متعددة . فالتوراة تقرر أن لغات العالم ترجع إلى لغة واحدة وهى اللغة الأم ، ثم تقص علينا قصة جميلة حول السبب الذى أدى إلى هذا التنوع فى الأجهزة الصوتية ، والتعدد فى اللغات . فهى تحدثنا عن قصة من القصص السامى القديم الذى رددت صداه الآداب العالمية والديانات السماوية أعنى قصة (برج بابل) فهى كما يدل عليها اسمها ليست عبرية بل بابلية ، وإن كانت التوراة قد صاغتها فى أسلوب يختلف بعض الاختلاف عن الأصل البابلي ، فهذا البرج الذى كان أول الأمر من مستقرات المدينة لحراستها والدفاع عنها ، والذى أصبح فيما بعد مقترنا بالمعابد اقتران المآذن اليوم بالمساجد ، وأبراج النواقيس بالسكنائس أصبح فى التوراة مظهرا من مظاهر اتحاد الشعوب وجمع كلمتها . لكن هذا التآلف الذى قد يؤدى إلى شيء

من الغطرسه والكبرياء أغضب الله فنزل من السماء ويليل السنة
القوم فوقف العمل وتشتت الشعوب . وفي عصر السبي البابلي
(القرن السادس ق . م .) نجد اليهود يحدثوننا عن القصة حديثا
آخر يختلف بعض الاختلاف عما ورد في التوراة ، ويتفق مع
ما نعرفه في الإسرائيليات ، وقصص الأنبياء ، وبعض كتب التفسير .
لكن بينما القصة اليهودية تدعى أن شعب الله هو الشعب العبري
لعدم اشتراك جدهم (عبر) في بناء البرج إذ بالمصادر العربية تقرر
أن العربية هي لسان أهل الجنة ؛ فالسيوطي يحدثنا في المجلد الأول من
مزهرة : وأخرج ابن عساكر في التاريخ بسند رواه عن أنس
ابن مالك موقوفا قال : لما حشر الله الخلائق إلى بابل بعث إليهم ريحا
فاجتمعوا ينظرون لماذا حشروا له فنادى مناد : من جعل المغرب عن
يمينه والمشرق عن يساره واقتصد البيت الحرام بوجهه فله كلام أهل
السماء فقال يعرب بن قحطان فليل له : يا يعرب بن قحطان بن هود
أنت هو ، فكان أول من تكلم بالعربية ، فلم يزل المنادى ينادى
من فعل كذا وكذا فله كذا وكذا حتى افترقوا على اثنين وسبعين
لسانا وانقطع الصوت وتبلبلت الألسن فسميت بابل وكان اللسان
يومئذ بابليا .

ولم يقف أثر هذه القصة عند هذا الحد بل نجد لها تذهب بعيدا
فتخرج لفظ — بابل — من معناه الأصلي (باب ال) أي (باب
الله) إلى المعاني المتداولة الآن في سائر اللغات السامية الحامية ،

والهندية الأوربية؛ ففي الإنجليزية مثلاً (Babel) يدل على معنى (ببل Babbele) و : بابل : في الألمانية . واللفظان يستعملان فيما تستعمل فيه كلمة - بلبل - في العربية

وايست الشعوب السامية هي الوحيدة التي انفردت دون شعوب العالم بالاعتقاد في أن لغات البشر ترجع إلى لغة واحدة أصلية ، فاقصص الصينى يحدثنا أنه كان يحكم تلك البلاد قيصر يدعى (شين هوانج) خضع لسلطانه الإنسان والحيوان والنبات ، وحتى المظاهر الكونية المختلفة من مطر وريح ، ونور وظلام ، وسكون وحركة ، كما أنه كان يتصف بكل الفضائل وإرجاع سائر اللغات إلى أصل واحد ، وظلت البلاد في رغد من العيش حتى تبلبلت الألسنة فتغيرت الأحوال واضطربت الأمور . وفي الهند نجد نفس الفكرة تتجلى لنا في صورة شجرة تين اسمها (فاتا) كانت تظل العالم أجمع عندما كان يتكلم لغة واحدة وهي لغة الله . وحدث أن دخل العجب نفوس القوم ففكروا في استخدام الشجرة التي بلغت قممها كبد السماء وسيلة للوصول إلى مكان الآلهة التي غضبت وحطمت الشجرة وتناثرت أغصانها ، ففرقت العادات ، وتنوعت الأخلاق ، وتبلبلت الألسن . أما هذه الأغصان التي كان يبلغ عددها واحدا وعشرين غصنا فقد غرست من جديد وتكونت منها الأسرات اللغوية العالمية .

لم يقف اعتقاد العالم القديم في اللغات البشرية عند هذا الحد أعنى أنها ترجع جميعها إلى لغة أصلية واحدة وهي اللغة الأم ، بل نظر

إلى اللغة نظرة تقديس وإجلال . فقدماء المصريين اعتقدوا أن
لكلمة ربا خاصا وهو (توت) كما آمن اليونان بالإله (هرميس) ،
والرومان (بيانوس) ، واعتقد البابليون في (أيا) ، والهنود في
(برهما) ، والجرمان في (أودين) كما أن بعض الشعوب الأخرى
كالهنود الحمر بالمكسيك مثلا رأوا أن اللغة وصلت إلى البشر عن
طريق طائر خاص ، فاللغة في عقيدة تلك الشعوب توقيف ووحى .

لكن فكرة الإنسان في آلهته تطورت وتغيرت مع مرور
الزمن كما اندثرت ثقافات وقامت على أنقاضها أخرى تختلف عنها في
نظرها إلى الـكون وتقديرها للوجود . وأخذ يفقد الإنسان تدريجيا
إيمانه بتمدد الآلهة والبحث عنهم خارجه ، وأصبح يميل إلى الكشف
عن إلهه في داخله ، وقد تجلت لنا هذه الفكرة واضحة في المسيحية
عندما نسبت إلى عيسى عليه السلام أنه قال : أنا الكلمة والكلمة
أنا : فهذا التطور الفكري الذي أدى إلى القول بأن اللغة ليست
توقيفا ولا وحيا سبقه تطور آخر في الفنون والآداب تجلّى لنا في
لغة الترانيم الدينية الرفيعة ، ولغة كبار الكتاب والشعراء ؛ ففي تلك
النصوص نقرأ لغة تختلف عن لغة العامة اختلافا كبيرا ، ولو كانت
اللغة توقيفا لكانت واحدة ، هذا إلى جانب كثرة التوارد والترادف ،
والتضاد والشواذ ، وما إليها من الظواهر اللغوية التي تشوه جمال
اللغة وتجعلنا ننظر إليها نظرة أقل من نظرنا إلى أي تمثال من صنع
الإنسان ، ونعتقد في أنها اصطلاح وتواطؤ . وقد رأى هذا الرأي

قديمًا كثير من الفلاسفة وعلى رأسهم أرسطو ، كما ناصر الفكرة الأولى آخرون ومن بينهم أفلاطون . وقد استمر النزاع قائمًا بين المدرستين حتى العصور الوسطى إذ انتصرت آراء أرسطو وأصبحت هي الأساس الذي شيدت عليه الآراء المتأخرة حول اللغة وأصولها . لكن نظرية برج بابل التي رددت صداها أساطير الهند وقصص الصين ، والتي كانت العامل المحرك إلى إيجاد تلك الحركة الفكرية حول اللغة وأصلها اتجهت بالفكر الإنساني منذ القدم اتجاه آخر قصد به التثبت من صحة النظرية أولاً ومعرفة زمن ووطن اللغة الأصلية ثانياً . فهيرودوت يحدثنا أن (بسماتيك) أراد الوصول إلى معرفة اللغة الأم أو بمعنى آخر أقدم شعب على الأرض ، فأمر بإحضار وليدين و وكل أمر العناية بهما إلى أحد رعيانه ، وحذره من أن ينطق أمامهما بقطع واحد كما أمر بوضع الوليدين في مكان بعيد لا يصل إليه صوت بشر . وكان هذا الراعي يزور الطفلين في أوقات مخصوصة ومعه ماعز لإرضاعهما . وبعد مرور عامين دخل عليهما الراعي فوجدهما يركضان صائحين (بيكوس) ، فأخبر الراعي (بسماتيك) الذي أمر بإحضار العلماء إليه وعرض عليهم هذا اللفظ فظهر أن مدلوله (خبز) في لغة أحد شعوب آسيا الصغرى المعروف بالشعب الفريجي ، فاستدل من ذلك على أن هذا الشعب أقدم الشعوب كما أن لغته أقدم اللغات . ونفس هذه التجربة التي قام بها فرعون مصر (بسماتيك) نجدها تتكرر في العصور الوسطى .

فالتاريخ يحدثنا أن فريدريش الثاني حاول القيام بهذه التجربة فلم يوفق ، لكن هذه المحاولات وإن كانت قد أخفقت إلا أنها كانت السبب في خلق علم جديد ألا وهو علم مقارنة اللغات الذي استخدم كوسيلة من وسائل البحث عن اللغة الأصلية . ففي القرن الرابع الميلادي نجد (هيروديموس ^(١)) يشير إلى القرابة بين العربية والعبرية والفينيقية ، وتبعه علماء آخرون منهم الغربي ومنهم الشرقي ، وقد عاونوا جميعا في بناء هذا الصرح العظيم الذي تسلمه (لينتز) في القرنين السابع عشر والثامن عشر ودعمه . وذلك لأنه كان يعتقد في اطراد حياة اللغة الأصلية وانتشارها بين لغات كثيرة ، فجمع من تلك اللغات المواد التي كان يرى ضرورة الاستعانة بها لبناء هيكل اللغة الأصلية ، وعاونه على تحقيق غايته اتصاله الوثيق برحلة الصين الإيطالي (كلوديو جريمالدي) وملك بولندية (يوحنا سويسكي) وقيصرة روسيا (كترين الثانية) . لكن ما كاد يولد القرن التاسع عشر حتى رأينا العلماء ينقسمون إلى فريقين فريق يستخف نظرية برج بابل وكان على رأسه (فولتير) وآخر يعارضه بزعمه (فلهلم

(١) ولد في دلماسيا في النصف الأول من القرن الرابع الميلادي من أسرة مسيحية ودرس في روما النحو والبلاغة ومن ثم اعتنق عام ٣٦٦ المسيحية ورحل بعد ذلك إلى الشرق حيث أقام في أنطاكية ، وتعلم بعض اللغات الشرقية . وبعد أن أقام مدة في الشرق رجع إلى روما وعاد ثانية مع صديقه بولا وابنتها وأقاموا في بيت لحم حيث أسسوا بعض الأديرة التي كانت تحت إشرافه ، وقد اشتهر بفساد الخلق والكذب .

فون هومبلت) ، ومن حسن حظ الفريق الأخير أن القرن التاسع عشر كان عصر الاكتشافات اللغوية الخطيرة ، فرموز الهيروغليفية قد حلت ، وطلاسم الأكدية رفع القناع عنها ، وتسابقت بموت الجامعات الأوربية والأمريكية إلى الشرق ، ونبشت أرضه فازداد تعمق اللغويين في السنسكريتية واستطاع العلماء أن يرسوا خطا كروكيا يبين لنا مجموعة اللغات التي عرفت فيما بعد بالهندية الأوربية . ووفق (فرنس بوب) عام ١٨١٦ عندما نشر كتابه الذي درس فيه صرف اللغة السنسكريتية مقارنا بصرف اللغات اليونانية واللاتينية والفارسية والألمانية ، وقد أقام بكتابه هذا الدليل العلمي على قرابة هذه اللغات ، ثم تلت هذه المجموعة مجموعة أخرى من اللغات السكتية والصقلبية والألبانية والأرمنية . وهكذا أصبحنا نرى أنفسنا في القرن التاسع عشر أمام مجموعة من الشعوب تمتد من الهند إلى شمال أرنلده تربط بينها رابطة الجنس وتوحد بينها اللغات ، وكانت نتيجة هذا الكشف اللغوي العظيم أن أقبل تلاميذ (فون هومبلت) على بقية اللغات وأخذ كل فريق يعني بلغتين أو أكثر حتى نجحوا أخيرا في مد خطوط وهمية تفصل بين كل مجموعة وأخرى ، واضطر اللغوي إلى التخصص في أسرة من هذه الأسر ليتمكن من فهم اللغة التي يعني بدراستها ويساهم إن استطاع في الوصول إلى الهدف الرئيسي ألا وهو تحقيق نظرية برج بابل . والواقع أن هذه السنة الجديدة التي استنتها مدرسة (فون هومبلت) أتت بأحسن

النتائج ، فقد ظهر من دراسات علماء الأسرات المختلفة أن بين لغات الأسرة الواحدة ، توجد مجموعة من المفردات والخصائص النحوية والصرفية التي تجب العناية بها قبل أن يقدم العالم على عمل دراسة مقارنة بين أسرة وأخرى . فظهر في الأسرة الهندية الأوربية أمثال (بروجمان) والسامية الحامية (بروكلمان) ، وبلاستمان بالفتائج التي وصل إليها علماء الأسرتين وغيرهما أصبح من اليسير على (هرمان مللر) و (الفريدو ترومبتي) أن يقدموا للعالم مؤلفاتهما التي تؤيد نظرية برج بابل ، وترجع سائر اللغات إلى لغة واحدة أصلية وهي اللغة الأم .

قصصنا العربية

هو ذلك النوع الذي تتداوله العامة ولا تهتم له الخاصة ، وهو الذي يصور لنا الأحداث الجاهلية والإسلامية ويصف لنا الحياة العربية داخل الجزيرة وخارجها ، وقد أريد من تأليفه تثقيف الشعب وتعليمه تاريخه القومي ليتبصر في ثقافته ، ويتعصب لقوميته . ونحن نعلم منذ فجر التاريخ أن السياسة ممتزجة بالدين امتزاجاً قوياً ، فقديمًا كان الملك هو رب الشعب كما أن الكاهن جمع بين السلطتين السياسية والدينية في القبيلة . ولما جاء الإسلام وفق بين الحياتين الدينية والسياسية توفيقاً صالحاً ، وسخر كل سلطة منهما لخدمة الأخرى ، فضمن بذلك نجاح الدعوة الدينية وتدعيم النظم الاجتماعية التي نادى بها وعمل على استقرارها . ولا شك أيضاً في أن نجاح الدعوة المحمدية يرجع إلى شخصية النبي أولاً وطبيعة الدين الإسلامي ثانياً ، فقد أيقظ الدين الجديد الشعور القومي ، فجمع بين مختلف القبائل وربط بينهما برباط الدين ، وهذا الاتحاد هو الذي مكّن العرب المسلمين من القيام بحروبهم وغزواتهم ، فأصبح التاريخ الإسلامي والدين المحمدي وحدة لا يمكن فصلها . كذلك كان الحال في فجر تاريخنا ، وسيمضي هذا الحال ما بقي الإسلام . لذلك لا غرابة إذا وجدنا تاريخ انتشار ديننا هو المحور الذي تدور حوله دراسات

المؤرخين ، وحتى قصصنا العربي الشعبي أصبح صدى يردد تلك الحوادث ، وهذه الشخصيات التي تمت إلى ديننا عن قريب أو بعيد بصلة .

قصصنا الإسلامي هو مرآة تتجلى فيها صور هذا الماضي البعيد الذي لازم الإسلام قبيل ظهوره وبعد انتشاره ، وما زال يلزمه حتى يومنا هذا . وهذه الصور التي نجدناها في هذا القصص هي صورة للتاريخ كما فهمه الشعب ، أو كما أراده زعماءه أن يفهم . فقد كان هذا النوع من الأدب الشعبي حتى وقت قريب من أحسن أنواع المحاضرات العامة التي ابتدعت لتدريس القوم تاريخهم الإسلامي ، فمن منا لا يذكر الشاعر وقد جلس برابته وحوله الجموع قد احتشدت وهو يشنف الأسماع بموسيقاه الصخرأوية الجميلة التي لا تمزقها موجات الأثير ، ولا شخشة المذيع قاصاً ذلك التاريخ الذهبي البعيد . من منا قد نسي قول الجازية وهي على أبواب تونس تحاول اقتحام أبوابها بحيلة أجهل من حيلة أصحاب حصان تروادة .

أنا أمدح محمد	أبو القاسم أحمد
من زاره يسعد	وينال الفخارا
يا الله إني أزوره	وأتملى بنوره
وأشاهد قصوره	وأحظى بالزياره
قالت بنت سرحان	بقول في أوزان
تو الشعر ما بان	صار لي فيه أماره

نظم من الجوادى	هيات النشادى
يا الله ابلغ مرادى	وأرجع بافتخارا
يا بواب منصـور	افتح لنا الصور
نسر له بدستور	ونبيع التجاره
والله ما أفتح الباب	لو شفت العذاب
والأأضرب بحراب	من غز سكارى
افتح لا تبالى	دحنا لا عيالى
ونبيع الخالى	وأحزمة المهارى
والله يا ظريفه	خايف من خليفه
له حربه رهيفه	تمرقم الحجاره
احنا لا خدمهم	وندعى حشمهم
وزعى جمالمهم	يا بواب الاماره
والله يا بناتى	خايف م الزناى
من ضربه ماتى	ويزور القباره
فتح الباب ساهل	إلا القلب واجل
والسلطان جایل	ما فيا جساره
افتح الباب يا حبيبى	يا مسكى وطيبى
خدتك من نصيبى	من دون العذارى
بنات البوادى	معنا طيب وكادى
وأحقاق الزبـادى	فى خرج العطاره

للتاريخ والدين ، للأدب واللغة ، كتبت هذه القصص فنحن
لا نقرأ قصيدة من قصائدها إلا ونصلي على النبي ، كما أننا لا نفتح قصة
أوسيرة منها إلا ونقرأ مثل هذه العبارات : أما بعد فإن الله سبحانه
وتعالى جعل سير الأولين عبرة للآخرين ، وموعظة للجاهلين ،
وتنبيهاً للغافلين ، يتعظم بذلك أصحاب العقول السامعين ، ويعلمون
أن الجهاد فرض على المؤمنين ، وإنى قد استخرت الله العظيم في
كتابة هذا الكتاب حيث رأيت محتوياته على نصرة السلام وخذل
الكفرة اللئام :

وأما محتوياتها فمختلفة متنوعة فمنها ما يعرض لوصف الممارك
الحربية كقصة علي بن أبي طالب رضي الله عنه وحربه في وادي
السيستان . كذلك قصة (ذات الهممة والبطال) التي تبين بصورة
واضحة الحروب التي كانت تقوم بين القبائل العربية من ناحية ، وبين
العرب والبيزنطيين من ناحية أخرى . ففي هذه القصة ومثيلاتها من
القصص الحربية نجد الشيء الكثير من أخبار الحروب والهجرات
التي أدت إلى انتشار الإسلام ، كما نجد فيها كثيراً من الأخبار
الغرامية المتصلة ببعض الشعوب الأجنبية . وقد كثرت هذه القصص
في المصوّر الإسلامية الأولى حيث نجد قصة تحدثنا عن غزوة تبوك ،
كما نقرأ في كتاب آخر يتصل بفتح اليمن ويعرف برأس الغول وصفاً
لفتح تلك البلاد ، وفيه يقوم الإمام على بدور البطل الأول . كذلك
وصلقنا قصة حول فتح مكة واسمها « الدرة المسكلة في فتح مكة »

المشرفة المجددة» على هامش فتوح الشام المنسوب لمحمد الواقدي .
ومن الجدير بالذكر هنا أيضاً أن موقف النبي صلى الله عليه وسلم مع
اليهود ، خاصة يهود خيبر ، وجد صداه في القصص العربي ، إلا أن
شخصية النبي حملت على شخصيات أخرى وأبطال شعبيين مثل عنتر
وأبي زيد الهلالي .

وغير تطاحن القبائل وحروب النبي نجد في قصصنا الإسلامي صوراً
عديدة من صور حروب المسلمين في صدر الإسلام مع غير العرب خاصة
مع المجوس والبيزنطيين ، وهذه الحروب نلصقها بوضوح في مثل قصص
سيف بن ذي يزن ، وعنتر ، ومحمد الكردي ، وبني هلال ، وغيرها .
فهذه القصص وإن كانت قد رددت صدى الفتوحات الإسلامية ،
إلا أنها لم تفرد دائماً لكل غزوة أو حرب قصة مستقلة . فنحن
نقرأ في كثير منها أخباراً ترجع إلى عصور مختلفة ، كما أننا نجد فيها
من الحوادث الكثير الذي لا يمت إلى الإسلام بشيء . ومن هذه
القصص أيضاً ما ترجع حوادثها إلى الجاهلية ، ولو أن الفن القصصي
جعل من أبطالها أمثال عنتر وسيف بن ذي يزن مسلمين مبشرين
بالإسلام . وهذا ليس بغريب فالإسلام قديم في الجزيرة ، وهو ملة
إبراهيم ، لذلك كثيراً ما نجد في قصصنا بعض العبارات التي تشير إلى
قدم الإسلام وتوحيد إبراهيم مثل : أشهد أن لا إله إلا الله وأن
إبراهيم خليله .

ومن أشهر القصص الإسلامية التاريخية قصة عمر النعمان ،

وذات الهمة والبطال ، والقصتان تكتسبان شهرتهما من حيث إنهما تعالجان بعض الأحداث الإسلامية التي وقعت في آسيا الصغرى . ففي القصة الأولى نجد الأبطال يقومون بدور المسلمين ، ولو أن الأسماء التي خلعت عليهم هي في الواقع أسماء رمزية لا تكشف لنا القناع عن شخصياتها التاريخية . أما بطل القصة الحقيقي فاسمه عمر أو عمرو النعمان واسم خصمه ساسان . فن الاسبين نسمع صدى الحروب التي نشبت قبل الإسلام على حدود فارس بين العرب والفرس ، ومن ناحية أخرى نجد أن محتويات القصة تشير إلى بعض التواريخ التي تتصل بالحروب الإسلامية البيزنطية . فهي تحدثنا عن حصار المسلمين للقسطنطينية ذلك الحصار الذي دام عاما كاملا ، (٧١٦ — ٧١٧) . كذلك في إحدى مخطوطات هذه القصة المحفوظة بمكتبة جامعة (توبنجن) بألمانيا ذكر اسم القيصر البيزنطي الذي حوصر وهو (لاوى) ولا شك في أن هذا الاسم هو التسمية العربية للفظ (ليو) الذي قاوم في الحصار مقاومة عنيفة .

أما قصة « ذات الهمة والبطال » فمؤلفها يدعى نجد بن هشام الهاشمي الحجازي ، وهي تلخص في أن المؤلف بعد أن عدد مناقب بني كلاب وأفضليتهم على بني سليم أخذ يتحدث عن صلة القرابة بين بني سليم وبين الأمويين . هذه القرابة التي أكسبتهم الشيء الكثير من الجاه وسعة النفوذ . وكان على رأس بني كلاب بطل يدعى

جندبة بن الحارث وكان شجاعاً متسامحاً مع الضعفاء شديداً على
الأقوياء . وعلى رأس بني سليم كان مروان بن الهيثم وكان أيضاً
شجاعاً محترماً . أما أم جندبة فكانت تدعى الرباب وقد وضعت في
الصحراء أثناء هربها بعد موت زوجها الحارث ، وتحدثنا القصة بعد
ذلك أنها توفيت بعد وضعه ، فوجده أمير تلك الجهة واسمه دارم
فأخذه واعتنى به فلما كبر وترعرع أغرم الصحصاح بن جندبة بفتاة
غاية في الجمال تدعى ليلى بنت عطف وتزوجها ورزق منها بابن دعاه
(ظالماً) . ومن ثم رحل الصحصاح خفية وتزوج من بني الوحيد
فتاة اسمها إمامة ولدت له ابنه (مظلوماً) . ثم فر والتحق بدير
فأقام فيه مدة قرر بعدها العودة إلى زوجته ليلى إلا أن وحشا افترسه
في الطريق ولم ينج إلا حصانه الذي واصل السير حتى جاء إلى بني
كلاب ، فأدركوا أن الصحصاح مات . وهنا نجد ابنه ظالماً ينطلق
باحثاً عن ميراث أبيه ، فيركب مع جماعة من قومه ويتوجه إلى
دمشق . ولكن حدث أن توفي في ذلك الوقت الخليفة الوليد
فيستقبله سليمان ويكرمه ، وتفقد وفود العرب من مختلف الجهات
الاحتراف بظالم حتى عييد الله سيد بني سليم بعد موت والده مروان
ابن الهيثم . ثم بعد ذلك جاءت أم مظلوم وكان عمره في ذلك الوقت
خمسة أعوام وطالبت (ظالماً) بنصيب ابنها في ميراث والده فيقسو
عليها (ظالم) ويطردها ، فتعود بطفلها (مظلوم) إلى بني الوحيد
حيث عنيت به قبيلة أمه عناية خاصة ، ونشأته على الشجاعة وركوب

الخيول ، فلم يمض زمن طويل إلا وأصبح سيد قومه . وهنا نرى القصة تعرض لنا صورة من أدق الصور تعبر لنا عن النزاع الذي قام بين الأخوين هذا النزاع الذي انتقل من يدها إلى بني كلاب ، وبني الوحيد ، ثم يتوسط شيوخ القبيلتين بين الفريقين ، ويعقد الصلح على أن تنتقل زعامة القبيلتين إلى الطفلين الذين سيولدان لظالم ومظلوم ، وولدت امرأة ظالم ولدا وأسمته الحارث ، ووضعت امرأة مظلوم وليدة أهدتها إلى صديقة لها تدعى سمدي وأخفت زوجها أمر الفتاة على أهل القبيلة ، وادعى مظلوم أن زوجه وضعت ولدا توفي لساعته . أخذت سمدي الفتاة وسمتها فاطمة وأخذت تعني برضاعتها ونشأت الفتاة في بني كليب حتى كان أن أغارت قبيلة طى على بني كليب وأخذت كثيرا من الأسرى من بينهم كانت سمدي ، وابنها مرزوق ، وفاطمة . ومن ثم تذكر القصة كيف أن فاطمة هذه قتلت كثيرين من رجال طى الذين حاولوا الاعتداء على عفافها حتى ذاع صيتها بين القوم ، وأطلقوا عليها لقب (ذات الهممة) . ومنذ ذلك الوقت أخذت تحيا هي ومرزوق حياة كلها مغامرات ومجازفات . وبعد ذلك نجدها تضع غلاما تطلق عليه اسم عبد الوهاب أراد الخليفة الواثق تعيينه واليا على القسطنطينية فرفض ، ثم تنتهي حياة ذات الهممة وابنها كما تنتهي حياة معظم أبطال القصص العربي أعنى في الحجاز بعد تأدية فريضة الحج .

أما (بطال) فهو قائد حربى تاريخى استشهد عام ٧٤٠ فى الحرب ضد البيزنطيين فنشأت حوله سلسلة من القصص والأساطير خاصة أيام الحروب العباسية البيزنطية . وقد ختمت هذه القصة

حوالى أوائل القرن الثانى عشر إن لم تكن من قبل . وقد أثرت تأثيرا كبيرا فى العالم الإسلامى حتى إن الأديب التركى ابتدع قصة أخرى تستمد من قصتنا العربية خيالها وبعض وقائعها وهى التى تعرف بقصة (سيد بطال) .

وغير هذه القصص الإقليمية نجد أخرى فردية كقصة ابن خازم ذلك الثائر الذى شق عصا الطاعة على والى الأموى على خراسان ، واعتصم بحصن (ترمذ) مدة تقرب من خمسة عشر عاما كما أن التاريخ حفظ لنا قصة حول ابن أبى مسلم الخراسانى والحاكم بأمر الله ، ولعل أجمل قصة وصلتنا تتعلق بالشام ومصر هى سيرة الظاهر بىبرس التى سجلت لنا انتصارات المسلمين على الصليبيين ، كما أنها تحدثنا عن العلاقات التى قامت بينه وبين الفداويين الذين كانوا يقطنون الشام ، والذين انحدروا من الحشاشين .

ليست هذه القصص التى جاء ذكرها هنا هى كل تراثنا القصصى الإسلامى ، فدور الكتب مملأ بالخطوط التى تدلنا على غزارة الخيال العربى وقوته الخالقة ، وكلما أمعنا فى دراسة هذه القصص والعناية بها تسكشفت لنا أوجه النقص فى الكثرة المطلقة من الكتب العربية التى يدعى أصحابها أنها دراسات حول الأدب العربى أو عصر منه ، وذلك لأن المتشدين من هؤلاء الأدباء يجهلون لغات الجزيرة قبل الإسلام ، ولا يعرفون من اللغات العربية إلا اللهجة القرشية ، وحظهم من القصص العربى الذى تتصل حوادثه بأدبنا فى الجاهلية إلى اليوم قليل جدا .

سيرة سيف بن ذي يزن

وهذه سيرة من سير الأدب العربي الشعبي بشرت بالإسلام في الجاهلية ، وعرضت المسألة السامية الحامية في كل جزء من أجزائها السبعة عشر . وهي تلح على القارىء في وجوب الاعتقاد بأقدمية الإسلام ، وأفضلية نسل سام . وقد اعتمدت في تأييدها للفكرة الأولى على ديننا الحنيف وتعاليمه القائلة بأنه قديم ، وأنه ملة إبراهيم . كما أنها عتد تفضيلها للساميين على الحاميين استكتبت التاريخ ، واستلهمت العصور ، واستخدمت مختلف وسائل الدعاية .

ولأمر ما تبدأ السيرة حوادثها بالكلام عن الملك اليماني القبي ذى يزن الذى ذاع صيته ، واشتهر أمره ، ودانت له بلاد العرب الجنوبية ، واتخذ له وزيرا حكيما عاقلا تصفه السيرة بأنه لا نظير له في مشرق الأرض ولا في مغربها . وكان اسمه (يثرب) ، وكان مطلعا على كثير من الكتب القديمة والملاحم العظيمة بما فيها التوراة ، والإنجيل ، وصحف إبراهيم الخليل . وقد علم (يثرب) من تلك الكتب أن نبيا اسمه محمد سيعظم الإسلام ويبطل سائر الأديان التي لأهل الكفر والطغيان ، ومن ثم تأخذ السيرة في عرض العلاقات بين جنوب الجزيرة وشمالها بأسلوب قصصى فكه وفي صورة جذابة .

فنهجن ترى الملك ذا وزن يعد العدة ويجهز الجيوش ويسير هو على رأسها إلى الشمال لمحاربة الملك (بعلبك) ، ولم تكد جيوشه تصل إلى بيت الله الحرام إلا ويظهر ذو وزن رغبته في هدم الكعبة ونقلها إلى اليمن^(١) فينتقم رب البيت منه ، ويسلط عليه مختلف الأمراض التي أثنته عن عزيمته . وعلى أثر هذه المعجزات يعتنق هو وجيشه الإسلام ويشهد أن لا إله إلا الله وأن إبراهيم خليله ، وبكسو الكعبة . ثم نجد الوزير (يثرب) الذي كان يدين بالإسلام سرا يعلن إسلامه ، ويرجو الملك أن يسمح له ببناء المدينة التي أطلق عليها اسمه ، وذلك لأنه قرأ في كتب المتقدمين أيضا أن محمدا سيهاجر إليها . وبعد أن يفرغ ذو وزن من أرض الحجاز يراه يتجه شمالا إلى بعلبك ويسقط سلطانه ، ومن ثم ينتقل إلى أرض الحبشة والسودان ، وهنا تنتهي حقيقة حدود النفوذ العربي الجنوبي . فالنقوش التي عثر عليها رجال اللغات السامية سواء في بلاد اليمن أو على طول الطريق التجاري الممتد من جنوب الجزيرة إلى شمالها مارا بمكة ويثرب ومدائن صالح وتبوك ومعان ودمشق ، وكذلك في بلاد الحبشة تثبت أن تلك البقاع كانت يوما ما خاضعة للنفوذ التجاري أو الثقافي أو السياسي اليمني .

(١) يذكر ابن هشام وابن السكيت وتؤيدها النقوش السامية على أنه كانت في الجزيرة العربية كعبات أخرى غير كعبة مكة ككعبة نجران باليمن وسنداد بالعراق .

لكن في الحبشة والسودان ترى السيرة تنحوا نحواً عجيباً فهي
هنا تمزج الدعوتين الإسلامية والسامية ببعضهما مزجاً تاماً ، فهي
بعد أن كانت لا تعنى إلا بالإسلام وأقدميته أخذت تتحدث عن
الساميين والحاميين ، فنرى الوزير يقول مخاطباً ذا زن :

وجللت يد الله خزا مزر كشاً يحير عين الناظرين مرقاً
وساعدتني حتى بنيت مدينتي يهاجر فيها سيد الأرض والسما
ويظهر دين الحق شرقاً ومغرباً فيافوز ذاك العصر من كان مسلماً
إلى أن يقول :

فإن مليكاً يملك الأرض كلها يكن حميراً تبعياً ومسلماً
بدعوة نوح داعياً كل أسود لأولاد سام تابعين وخدام
وتعرض السيرة بعد ذلك لشرح دعوة نوح هذه كما يرويها
أبو المعالي راوى سيرة الأمصار ، وسائق النيل من أرض الحبشة
والسودان إلى هذه الديار فهو يقول : إن نوحاً عليه السلام نام مرة
وكان سام قاعداً عند رأسه ، وحام تحت رجله ، فهب الهواء
وكشف عن عورة نوح فضحك حام وغضب سام وتشاجر الاثنان ،
فاستيقظ نوح واستطلعهما الخبر ، فقص عليه سام ما فعله حام ،
فغضب والدهما غضباً شديداً ، ودعا على حام بسواد البشرية وتمنى
لذريقه استعباد نسل سام لها : وفي موضع آخر نقرأ كيف هاجر
حام إلى أفريقية وكيف تزوج (قمر شاق) بنت الملك (كركار)
ومن ذريتهما انحدر العنصر الحامى الأسود . فهذه الفكرة التي

تحدث عنها السيرة أعنى أن الحاميين إخوة للساميين هي فكرة صحيحة حتى إن علماء الأجناس واللغات يطلقون على الأسرة التي تضم هؤلاء الأقوام أو لغاتهم الأسرة السامية الحامية . كما أن القول بأن الجزيرة العربية هي الوطن الأصلي للساميين والحاميين صحيح لا غبار عليه . أما هذه العداوة التي نجد صداها في مواضع كثيرة من السيرة والتي نقرأ شيئا منها في شعر يثرب ، وفي دعوة نوح ، وفي قول شامة بنت الملك الافريقى أفراس :

عسى الصفو يهذى إلى نسل حام ينالون عزا بقدر مهاب
عسى بطشة الدهر في نسل سام يصيرون في الناس مثل الكلاب

فتفسرها هذه الحروب الطاحنة التي قامت بين الساميين من ناحية وبين الحاميين من ناحية أخرى أعنى بين العرب والحبش والسودان . فالصادر التاريخية التي بأيدينا سواء كانت إسلامية أو غير إسلامية تحدثنا عن كثير من هذه الحروب التي اتخذت أشكالا مختلفة ؛ فهي طورا دينية ، وطورا استعمارية ، وطورا تقتصر على الساميين والحاميين ، وطورا تتعدى العنصرين إلى الزنوج والأوربيين^(١) ، وإن كانت السيرة حريصة الحرص كله على ألا

(١) في حوالى منتصف القرن السادس عشر تمكن القائد الحبشى المسلم أحمد إبراهيم من هزيمة نجاشيين من نجاشى الحبشة وهما (ابنا دنجل) وابنه (كلوديوس) فاستعان الأخير بالبرتغاليين الذين أرسلوا حملة تحت قيادة (كريستوف دا جاما) أبيدت عن آخرها (راجع مقالا لى فى هلال ديسمبر عام ١٩٣٥) .

تعرض للنوع الأخير لعدم اتصاله بالعصر الذي تميل إلى تصويره
لنا أعني العصر الجاهلي . فالسيرة في حديثها عن هذه الحروب تفتن
في عرض الحياة وأعمال البطولة ، وهي صادقة في هذا العرض إذا
اعتقدنا أن هذه السداجة ترجع إلى عصر متأخر لا إلى عصور سابقة
للإسلام أو المسيحية . سيف بن ذي يزن الذي ولد لأبيه في أفريقية ،
والذي لقب بوحش الفلاة ، والذي أتى في صباه بأعمال كثيرة تدل
على بطولته وشجاعته ، والذي أسند إليه مؤلف السيرة الدور الرئيسي ،
شخصية تاريخية لا يتسرب الشك إليها ، فهو الأمير اليماني الذي قاد
الجيوش العربية الجنوبية وطرده الحبش من بلاده بمساعدة الفرس
عام ٥٧٠ م وقد تحدث ابن هشام عنه وذكر لنا الكثير من الأشعار
التي تنسب إليه أو قيلت فيه . ولم تقف شهرة هذا القائد العظيم عند
هذا بل نراه جدا للأمرأة الحاكمة في (بورنو) وبطلا من أبطال
قصص سكانها .

ولكن بينما نجد مؤلف السيرة يختار سيف بن ذي يزن قائدا
للساميين إذ به يسند زعامة الحاميين إلى ملك حبشي يدعى (سيف
أرعد) فكان في اختياره للشخصية الثانية غير موفق ، وذلك لأن
التاريخ الحبشي ينص على أن (سيف أرعد) هذا حكم البلاد فيما
بين عامي ١٣٤٤ - ١٣٧٢ م أعني في القرن الرابع عشر بينما سيف
ابن ذي يزن من أبناء القرن السادس . ونقرأ في التاريخ الحبشي
أيضا أن حياة هذا الملك كانت امتدادا لسلسلة أعمال القسوة والإرهاب

التي شنها والده (عمدا صيون) (١٣١٤ — ١٣٤٤) على المسلمين القاطنين في تلك البلاد والأقطار المجاورة حتى إنه أغار على صعيد مصر وأطلق سراح بطريك الاسكندرية الأب مرقس الذي كان قد قبض عليه والى مصر وسجنه لامتناعه عن دفع الجزية . فنحن نرى من هذا أن النزاع بين الحاميين والساميين انتقل إلى مصر بعد أن كاد يكون قاصرا على الجزيرة العربية ، والقارة الآسيوية . ولعل من الأسباب القوية التي نقلت هذا النزاع إلى قارتنا وخاصة إلى وادى النيل — إلى جانب الخلافات الجفسية والدينية — العوامل الاقتصادية ، وقد أشار إليها مؤلف السيرة وعبر عنها تعبيرا لا يقل طرافة عن أحاديث الإخصائيين من رجال وزارة الأشغال ، فقد ذكر في الصحيفة التاسعة عشرة من الجزء الأول ، طبع القاهرة سنة ١٣١٠ هـ ما نصه : — واعلم يا ملك الزمان أن هؤلاء الحبشة والسودان لا بد أن تنفذ فيهم دعوة نوح عليه السلام لأنه محاب الدعوة بين الأنعام ، ولا شك في ذلك وأنهم يخافون على مجرى النيل من نزوله إلى الأرض الوطيئة خوفا أن ينزل إلى مصر فهم جاعلونه على قدر أرضهم ، وإذا فاض يحملون له تصارييف ينصرف فيها إلى الربع الخراب ، وأنهم لا يعملون عملا إلا بإذن الحكماء ، وهذا هو الصحيح ، والأمم الرجيج : وما زال الوزير يثرب يتحدث مع الملك في مجرى النيل ووادى الأمصار وفي شأن الحبش ، ويتفق المقرئ مع مؤرخي الحبشة على أن خصومات قوية قامت بين

سيف أرعد وبين المسلمين ، وأن هذه الحصومات كانت سيئة جدا حتى إن مصر اضطرت إلى التدخل لوقف هذا العدوان . وكان تدخل مصر هذا إلى جانب الأسباب الأخرى من العوامل التي جعلت الأمتين في سلام حيناً وعداء حيناً آخر . كما أن شخصية سيف أرعد أصبحت بغيضة إلى مسلمي مصر وموضعا للقصص والسخرية . وكتابة هذه السيرة التي يرجح أنها وضعت عقب وفاة سيف أرعد ، أعني حوالي نهاية القرن الرابع عشر أو أوائل القرن الخامس عشر . في تلك الفترة ألفت السيرة ، ومصر هي وطنها . وذلك ما يلمسه القارئ فيها ، فؤلفها خير بمصر وجغرافيتها ، لغتها وعاداتها ، فهو يذكر لنا كثيرا من بلادها وشوارعها ، وقد جاء في السيرة ذكر أسوان وإسنا ، وأخميم وأسيوط ، ومنفلوط وملوى ، وأهناس وحلوان ، والجيزة ومصر ، وحارة بير الوطاويط ، وقلعة الجبل ، والروضة ، وبولاق . كما ذكرت كثيرا من مدن الوجه البحري كدمهور ، وفوة ، وفارسكور ، واسكندرية ، ورشيد ، ودمياط ، وسمنود . أما لغة المؤلف فغنية جدا بالتعبيرات المصرية بالرغم من محاولته إلباسها الثوب العربي الفصيح . ونحن نذكر هنا على سبيل المثال (عيني رفت) و (وجه قدر الصينية) و (يانور عيني) .

والآن قبل أن نختم حديثنا عن هذه السيرة نحب أن نشير إلى ملاحظة هامة لاحظناها عند دراستنا لها وهي أنها لم تصلنا كما وضعها مؤلفها بل أقحمت عليها مع مر العصور بعض النصوص

التي تتعارض والأغراض الرئيسية التي رمى إليها المؤلف . وإلا
فكيف نفهم أن سيف بن ذي يزن هو زعيم العنصر السامي وأنه
سامي لغة وجنسا وينحدر من نسل حام كما جاء في الصحيفة السابعة
والخمس من الجزء الثاني من السيرة : وهو سيف بن ذي يزن بن
أسد البيداء بن حسان التبعي اليمان بن مهلول بن ماهيل بن أرجوان
ابن بحرون بن جندح بن حمير بن هاني بن مروان بن شروان
ابن حمير بن عنيف كوش بن حام .

الرهالية

وهذه قصة شعبية أخرى تختلف اختلافا كبيرا عن سائر القصص العربية التي نعرفها لسيرة بنى هلال ، فهي كما يدل عليها اسمها ليست سيرة فرد بل جماعة ، وحوادثها الرئيسية وقعت في غربى العالم الإسلامى لا في شرقيه ، وفي صقع هو وطن لمزيج من أجناس لا في بلاد عرفت بوحدة العنصر وبعدها عن الدخيل . في شمال أفريقية حيث العنصر الفينيقي السامى والبربرى الأفريقى ، ذلك الشعب صاحب التاريخ القديم والأثر البعيد في حضارة البحر الأبيض المتوسط ، والذي كانت تربطه روما إلى جانب الروابط السياسية الثقافة اللاتينية ، لذلك لا غرابة إذا رأيناه يتطلب من العرب المسلمين معاملة خاصة تختلف عن سائر المعاملات التي عرفتها البلاد الأخرى التي خضعت للإسلام والمسلمين ؛ فتاريخنا يحدثنا أن أمور تلك البلاد اضطربت اضطرابا خطيرا عقب وفاة فاتحها وقاهرها عقبة بن نافع ، ونحن نعلم أيضا أن قبائل بربرية كثيرة ارتدت عن الإسلام بعد أن اعتنقته حتى إن الوليد بن عبد الملك اضطر إلى إعادة فتحها بإسناد أمورها إلى موسى بن نصير . وبالرغم من يده الحديدية التي حكم بها البلاد فنحن نجد العروبة والإسلام في كفاح دائم يختلف حدة وضعفا

باختلاف العصور مع البربرية والوثنية ، ولعل أجمل صورة من صور هذا النزاع هي تلك التي تقدمها لنا سيرة بني هلال في أسلوبها القصصي الشعبي لا التاريخي العلمي الذي تركته لأمثال ابن الأثير وابن خلدون . فسيرة بني هلال وإن لم تكن في حجم سيرة « ذات الهممة والبطال » التي تقع فيما يقرب من اثنين وعشرين ألفا من الصفحات إلا أنها تعتبر من كبريات القصص العربية الشعبية . وكما أن مكتبة الدولة ببرلين تفخر بامتلاكها لمخطوطة « ذات الهممة » فهي ليست أقل ثباتها بنسخة السيرة الهلالية التي تخالف النسخ المتداولة بيننا اليوم .

ونستطيع أن نقسم هذه القصة إلى ثلاث حلقات :

الحلقة الأولى : وهي التي تعالج بني هلال منذ ظهورهم في الجزيرة حتى استيطانهم بلاد السرو . والحلقة الثانية تحدثنا عنهم وقد رحلوا إلى نجد . بينما الثالثة ويطلق عليها تغريبة بني هلال اهتمت بحروبهم وأعمالهم في الغرب .

أما الحلقة الأولى : فتبدأ بالحديث عن بني هلال ونسبهم وذريتهم فهي تقول إن هلال بن عامر وفد على النبي صلى الله عليه وسلم ومعه قومه وأسدى إلى المسلمين معاونة قوية حتى إن النبي أسكنه وادي العباس . وقد اشتهر هلال هذا بالشجاعة والكرم ، ورزق بولد دعاه المنذر ، ولم يكد المنذر هذا يبلغ مبلغ الرجال حتى ترك والده واحترف الفروسية وقام بكثير من أعمال السلب والنهب . ثم

تعرف إلى الأمير (مهند) وتزوج بابنته (هذبا) ، ومضت على زواجهما عشرة أعوام ولم يرزق منها بطفل ، فقرّر الزواج بأخرى ورحل إلى بلاد (السرو وعبادة) حيث تزوج بابنة الملك الصالح واسمها (عذبا) . وبعد ذلك نرى السيرة تحدثنا أن (هذبا) وضعت له (جابرا) كما وضعت (عذبا) جيبيرا . ولم يمض على ولادة الطفلين زمن طويل حتى نرى الغيرة تدب بين الاثنين ونرى كلا منهما تريد المنذر لها ولابنها ، وهنا تعرض لنا السيرة هذه الناحية من نواحي الحياة الشرقية الاجتماعية عرضا جميلا ، وينتهي الأمر بطلاق (عذبا) ورحيلها مع ابنها (جيبير) إلى نجد . ومن نسل جابر وجيبير انحدرت إلينا رجالات بني هلال ونسأؤهم الذين قاموا بالأدوار الهامة في مختلف فصول السيرة . فجابر ولد له عامر ، وتامر ، وهشام ، وحازم . ومن نسل هؤلاء انحدر (رزق) والد أبي زيد ، وسرحان والد السلطان حسن . أما جيبير فقد ولد رياح ، وحنظل ، والنعمان . ومن ذرية رياح دياب . فمن جدول النسب هذا يتبين لنا أن أبا زيد من نسل جابر بينما دياب من ذرية جيبير .

وبعد قصة جابر وجيبير نقرأ خبر زواج (رزق) بخضراء وكيف أنه رزق منها بفتاة تدعى (شيجا) وفي يدعى (بركات) . وكان الولد أسود اللون لذلك اتهمت خضراء في عرضها وانتهى الأمر إلى رحيلها وابنها إلى بلاد الأمير الزحلان عدو بني هلال ، فيكرم الأمير وفادتها ويعنى بها وتربية ابنها ويوكل أمر تعليمه إلى خطيب كان

يشرف على ابنيه (منعم ونعيم) ثم يحدث شىء من سوء التفاهم بين الخطيب وبركات فيعتذر الخطيب بقصيدة فيها شىء من الطرافة لأنها تذكر لنا المواد التي كان يدرسها الخطيب في ذلك العصر ، فهو يعنى باللغات وخاصة السامى منها :

ولسان عبرانى اليهود بينفكك ولسان سريانى تصير مشير
والطب والرياضيات والكيمياء :

والطب أيضا دانيال أعلمك وعلم الحساب وكل علم ظهير
وأعلمك علم الصباغات كلها تصبغ لروحك ما تريد يا أمير
ويحدث أن يهاجم الهلاليون بلاد الزحلان فيتصدى لهم بركات
ويأخذ والده أسيرا ويعترف له الهلاليون بشجاعته ويطلقون عليه
(سلامة) ، ويعجب به الزحلان ، فيزوجه بابنته (غصن البان)
وتعلو مكانة (سلامة) في أعين الهلاليين الذين رأوا كيف أن مهابته
آخذة في الزيادة لذلك أطلقوا عليه منذ ذلك الوقت اسم (أبى زيد
الهلالي سلامة) . وبعد أن تفرغ السيرة من سرد حروب الهلاليين
مع الزحلان تنتقل إلى سرحان ، ونحدثنا عن خبر تعرفه بشما ،
ووقعهما في أسر الافرنج ونجاتهما بحيلة لطيفة ثم تسجل لنا بعض
الأغاني الشعبية التي نرى ما يشبهها وزنا وقافية في أغانينا الصعيدية
الحديثة التي يسهل حفظها ويحلو ترنيمها . وهذا النوع من الفن
الشعري إن ذكرنا بشىء فإتاما بفن الملاحم السامى القديم ، والذي

وصلقنا نماذج منه في الأدب البابلي الآشوري ، فاسمع (شما)
تصف نفسها :

ربي عطاك هني	والكف متحنى
وخشوف وردنى	فى موج ومويه
أنظر لشامتها	هذى علامتها
أنظر لقامتها	شبه الرديفيه
والشعر مثل الليل	كأنه سبابس خيل
والوجه مثل السيل	وعيون هندية
واصغ إلى سرحان يعاتبها :	
شما تملفتينى	بحبك ضلعتينى
قومى واسقمينى	من فوق شبريه
قومى أنى دورك	وهلكت من جورك
بالليل أنا أزورك	وها لوقت شويه

وقبل أن تنتهى الحلقة الأولى من السيرة نقرأ شيئاً كثيراً عن
أعمال الهلاليين فى اليمن والهند .

أما الحلقة الثانية فتبدأ برحلة السلطان حسن وأبى زيد من بلاد
السرو إلى نجد حيث تعيش قبيلة زغبة وذرية جبير أعنى الأمير غانم
وابنه دياب ، وسبب هذه الرحلة القحط الذى حل ببلاد السرو .
وفى طريقهم إلى نجد نقرأ فصلاً طويلاً عن حروبهم مع يهود خيبر

وانتصارهم عليهم وفي نجد يتزوج السلطان حسن (نافلة) أخت
دياب بعد أن يعده بأخته (نور بارق) أى الجازية . وفي هذه الفترة
نجد وصفا للمعارك التى قامت بين الهلالية ، والعقيلي ، وحنظل ،
والهيدبي ثم تنتهى إلى الاصطدام بين أبى زيد ودياب . ولا تنتهى
هذه الحلقة إلا بعد أن تطيل في الحديث عن بطولة العرب عامة
والهلالية خاصة وانتصاراتهم على الأفرنج .

وتغريبية بنى هلال أو الحلقة الثالثة من حلقات هذه السيرة تعنى
بأعمال الهلاليين في الغرب خاصة في شمال أفريقية ، وهذه الفترة من
فترات التاريخ الإسلامى صحيحة لا شك فيها ، كما أن بنى هلال
عرفتهم الجاهلية وعاشوا في الإسلام وقاموا وحلفاؤهم بنصيب وافر
في سبيل العمل على تعريب تلك البلاد جنسا وثقافة ، فابن الأثير
يحدثنا في كامله بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوج في العام
الرابع من زينب بنت خزيمة أم المساكين وهى من بنى هلال ، ثم
يذكرهم مرة عند الحديث عن غزوة هوازن ومقات كثيرة أخرى
في مناسبات مختلفة . أما خروجهم إلى أفريقية فقد ذكره أكثر
من واحد من المؤرخين ، أذكر منهم هنا ابن خلدون ، فقد جاء في ص
٦٢ - ٦٣ من الجزء الرابع من تاريخه ما نصه : — كان المعز بن
باديس قد انتقض دعوة العبيديين بأفريقية وخطب للقائم العباسي
وقطع الخطبة المستنصر العلوى سنة أربعين وأربعمائة فكتب إليه
المستنصر يتهده ، ثم إنه استوزر الحسين بن على التازورى بعد

الجرجراى ، ولم يكن فى رتبته نفاطبه المعز دون ما كان يخاطب من قبله فحقد ذلك وأغرى به المستنصر وأصلح بين زغبة ورياح من بطون هلال وبعثهم إلى أفريقية وملكهم كل ما يفتحونه وبعث إلى المعز : — أما بعد ، فقد أرسلنا إليك خيولا ، وحملنا عليها رجالا فحولا ليقضى الله أمراً كان مفعولا :

وبينا نجد التاريخ جافا فى تصوير هذه الحملة إذ بالسيرة تعرضها عرضا وافيا مستفيضا ؛ فهى تخبرنا أنها أعدت كأحسن ما تعد حملة اليوم فنحن نقرأ خبر إرسال العيون إلى البلاد أولا لاستطلاع أخبارها ومعرفة قوتها وأحسن الطرق الموصلة إليها وكان هؤلاء الجواسيس من خيرة أبناء المهاليلين من مرعى ويونس وأبى زيد ، ويقع جميعهم فى قبضة العدو ولا يفرج إلا عن أبى زيد الذى عاد وجهز الجيوش لفتح تونس . ويسير أبو زيد مع بنى زحلان ، وحسن مع بنى دريد ، ودياب مع بنى زغبة ... ويؤتى بالجازية من مكة لتكون فى الطليعة . ثم نقرأ قصصا كثيرة حول هذه الجيوش والتقائها بالخفاجى عامر ، والمالك الغضبان ، والخزاعى ، وشبيب التبعى والبردويل بن راشد ، وأشهرها هى قصة بنى هلال مع الماضى حاكم صعيد مصر . وما كادت تتحرك هذه الجيوش للملاقاة الزناى خليفة حتى زودها أبو زيد بخططة الحربية الخطيرة ؛ فهو يضلل جواسيس العدو مرة ، ويستولى على عيون المياه مرة أخرى ويأتى بحمل لا تقل طرافة عن حيل قواد الحرب الحالية . وقد أطلق مرة المنادى ينادى

العرب : « كل من كان عنده ناقة والدة يبعد ابنها عنها أو فرس والده يبعد ابنها عنها وكل من كان عنده حصان طلوق يجيبه عند فرس شايع ويلحقونا على عين الخطيرى . وتخلي العرب كلهم يدقوا طبولهم في زولهم على العين ، فيسمع الزناتى حنين المهارى ، وصهيل الخيل ، وحس الطبول فينكسر قلبه قبل ما يحى لنا الحرب » . كما أنه كثيرا ما استخدم النساء للتسرب إلى داخل البلاد والقيام بأعمال السلب والنهب لإيقاع الذعر بين الأهليين والتمهيد لدخول الجيوش . وكان تنفيذ هذه المهمة يوكل عادة للجازية التى كانت تقوم بها خير قيام . فاسمها مثلا تقياحيل على منصور أحد بوابى تونس وتمنيه وتغريه بمختلف المغريات :

افتح لا تخالف	إنك رجل عارف
وانظر د الوصايف	لرية وساره
روحي يا صبيه	ماد لا بليه
قد جتتنا المنيه	لعند الديار
وشوف نجلا المليحه	مع حسنه الرجيه
حين ترخى المسيحه	مع طراف الخمار
تنصب لك علامه	ما بين الغراما
قل يا لله السلامه	في هذا النهارا

وبعد حديث طويل نجد الجازية تتغلب على منصور ويفتح لها ولن معها من نساء ورجال الباب ويتمكن الهلاليون من إطلاق

سراح مرعى ويونس ثم تدور الدائرة على الزناتى فيقتل بفضل خطة وضعتها ابنته سمعة التى شغفت بمرعى عندما كان فى سجن أبيها .
فهى التى أشارت على الهلالية بإرسال دياب إلى أبيها ومنازلته لأن ديابا أقدر الفرسان لمنازلة خليفة .

خلا الجول للعرب فى تونس ، واستولوا على عروش الغرب السبعة ،
وشرعوا فى تقسيمها بينهم كما أخذوا فى الاستعداد لغزو مرا كس .
وهنا نجد النزاع الذى كان قائما بين العرب فى الجزيرة أعنى بين
اليمينية والقيسية ينفجر مرة أخرى فى أفريقية ، فيمثل أبو زيد القيسية
ودياب اليمينية . وقد مهدت السيرة لذلك أحسن تمهيد ؛ فهى فى جدول
الأنساب الذى ساقته من قبل جعلت ديابا ينحدر من فرع تجرى فى
عروقه دماء حمير فهو دياب بن غانم بن رياح بن حمير بن رياح بن جبير ،
فذكر (حمير) هنا لم يأت عبثا وإنما تمهيد لسائر الخصومات التى
قامت بين أبى زيد من ناحية ودياب من ناحية أخرى ، وهو يعمل
لنا قتل دياب للسلطان حسن وأبى زيد فيما بعد .

أدت هذه القبائل القيسية رسالتها فى شمالى أفريقية وجعلته
عربيا جنسا وثقافة ودينا حتى يومنا هذا . وبعد ذلك نقرأ خبر
انتقال دياب إلى السودان والحبشة ، ويقتل دياب ويتولى ابنه
نصر الدين الزغبى حكم بلاد الغرب وتنتقل بعض القبائل القيسية
إلى صعيد مصر ثانية ، فأعلى النوبة ، فالخرطوم ، فدارفور حيث
نسمع عن وجود قبائل عربية مثل الرزيقات نسبة إلى رزق والد

أبي زيد وقبيلة سليم نسبة إلى بني سليم . وهنا تؤيد السيرة أبحاث
المؤرخين ورجال اللغات السامية فهم مجمعون على أن لهجة صعيد
مصر ، وعرب أولاد على غرب الاسكندرية ، ومالطة ، وشمالى
أفريقية ، وأعالى النوبة ، وكردفان ، وجنوب الخرطوم ، ودارفور
لهجة واحدة لها مميزات الخاصة التي تميزها عن سائر اللهجات العربية .
لكن قبل أن أختم هذا البحث أحب أن أقول إن استقرار
هذه القبائل العربية خارج الجزيرة لم ينسها يوما نجدا ، وجمال نجد ،
وحرية نجد ، وقد عبر مرعى عن هذا الحب بقوله يخاطب سعدة
بنت خليفة :

يا سعدة نجد العريضة مريه	رييت بها أهلى وكل جدود
بلدى ولو جارت عليا مريه	وأهلى ولو شحت عليا تجود

سيرة عنزة

رأينا في سيرة سيف بن ذي يزن عرضا جميلا للنزاع الذي قام بين الساميين والهاميين ، وبين العرب الجنوبيين والشماليين ، كما رأينا أيضا كيف أن بلاد العرب كانت إلى جانب القارة الأفريقية مسرحا هاما لتلك الحروب المتواصلة ، والتي كانت جاهلية حينها وإسلامية حينها آخر ، والتي انتهت بانتصار الساميين في الجزيرة وتعادل الكفتين في أفريقية . وعلمنا من حوادث هذه السيرة أيضا كيف بسط اليمينيون سلطانهم على بعض الأصقاع العربية الشمالية ، وقربوا بين العقليتين الجنوبية والشمالية ، ومهدوا لعملية التزاوج التي حدثت بين اللغتين العربيتين القحطانية والعدنانية في الجاهلية ، كما ساهموا بنصيب وافر في خلق اللغة العربية الأدبية التي سجل فيها العرب شعرهم الجاهلي ونثرهم غير الإسلامي واتخذها الوحي لسانه لتبليغ رسالته . وقلنا إن النقوش التي عثر عليها علماء اللغات السامية والمعلومات التي جاءتنا عن طريق رجال التاريخ وأصحاب السير تؤيد هذا . والآن نعرض لسيرة أخرى من أهم السير العربية أعني سيرة عنزة بن شداد التي تعتبر بحق إلياذة الصحراء ؛ فشخصية بطلها ما زالت حية بيننا ، وما زال لفظ (عنزة) المثل الذي يضرب للشجاع ، كما اشتق الشعب منه كثيرا

من المفردات التي تتصل بهذا المعنى عن قرب أو بعد . فالشخص
القوى يدعى (متعتر) والحمل الثقيل الذي لا يقوى على حمله إلا من
أوتى قوة عنتر هو (حمل متعتر) ، ولباس النساء الذي يبرز ثدى
المرأة ويقويه يسمى (عنترى) وأكبر مقبرة عرفتها أسيوط القديمة
هى (اصطبل عنتر) .

شخصية عنتر إذاً من الشخصيات التي تغلغت في ضمير الحياة
العربية ، وهى الشخصية التي تتمثل فيها الرابطة السامية الحامية
أجل تمثيل ، فنحن هنا لا نرى نزاعاً بين هذين الفرعين بل نلمس
صفاء ومودة وسلاماً ، فأم عنتر (زبدية) حامية وأبوه سامى ،
ويفخر بطل القصة بنسبه هذا ويقول :

يقدمه فتى من خير عبس أبوه ، وأمه من آل حام
عجوز من بنى حام بن نوح كأن جبينها حجر المقام
وهذه السيرة التي تشغل بضع آلاف من الصفحات المتوسطة
الحجم تتحدث عن نجد بن هشام ، وجهينة اليماني ، وأبى عبدة ،
والأصمى ، وسعيد بن مالك ، وغيرهم أهملت أسماءهم كرواة لها ،
والتي حفظ لنا التاريخ منها روايات بينها شئ يسير من الفروق ،
ونسبت إلى الأقطار الحجازية والمصرية والشامية والعراقية سجل
حافل لحوادث وقعت في الجزيرة العربية والعالم الإسلامى في الفترة
الممتدة بين القرنين السادس والحادى عشر الميلاديين . ففي نجد قلب
الجزيرة سكنت في منتصف القرن السادس الميلادى بطون كثيرة

من قبيلة قيس عيلان ، كما نزل في المنطقة الواقعة بين مكة ويثرب والحجاز وجبال طى بنو سليم وهوازن ، وشرقي هوازن نجد بنى غطفان الذين حل من أنحاذهم بنو بغيض بين عبس وذبيان وكانت منازلهم الأولى الشربة الواقعة بين النقرة ومكة . وفي ذلك الوقت الذى تتحدث فيه السيرة كان زهير بن جذيمة قد بسط سلطانه على غطفان وما كاد يستقر له الأمر حتى نجد الغارات تلو الغارات بين العدنانيين والقحطانيين . وفي إحداها سبى العباسيون كثيرين من بنى جذيلة وغلمانهم وجواريتهم وعبيدهم وعددا كبيرا من جملهم التى كانت ترعاها أمة حبشية تدعى (زيبية) وهى أم بطل السيرة . ثم بعد أن ينتهى الحديث عن العدنانيين والقحطانيين نجد السيرة تنتقل بنا إلى أرض العراق إلى بلاد الحيرة حيث يدور قتال بين عنزة والنعمان بن المنذر ، وذلك لأن الفارس العباسي يريد مهر عبلة وهو ألف من النوق العصافير التى لا توجد إلا في العراق وهنا نقرأ وصفا جميلا لبلاد العراق والعراقيين والعلاقات السياسية التى كانت تربطهم بالفرس . وكما أن السيرة وصلت بين نجد والعراق بمهر عبلة إذا بها هنا توقع عنزة في الأسر ليتخذ المؤلف من ذلك قنطرة يعبر عليها إلى إيران ، ومن ثم ينتقل بنا إلى الدولة البيزنطية ويبدى لنا السياسة الفارسية تجاه الدولة الرومانية الشرقية ، وهو في عرضه هذا لا ينسى العرب وموقفهم من هذا النزاع القائم بين كسرى وقيصر ، وهذه الخصومة التى اهتم بها القرآن الكريم وأشار إليها في سورة الروم .

وفي الصحيفة الثانية والأربعين بعد المائة نرى الراوى يحدثنا عن
الحرب التى قامت بين ملك الحيرة المنذر ملك العرب عبدة الأحجار
وكسرى ملك الفرس عبدة النار وينتصر العرب بفضل عنزة الذى
سجل بطولته فى قصيدته المشهورة التى مطلعها :

سلى يا ابنة العيسى رحى وصارمى

وما فعلا فى يوم حرب الأعاجم
لكن المنذر يعلم أن الفرس سيعاودون الكرة وأدرك هو أن
سلامته وسلامة بلاده تتطلب منه أن يكون جهة قوية ضد العجم ،
أعنى لا بد وأن ينادى بوجوب تعاون العرب واتحادهم فى سبيل
الوقوف فى وجه العدو الخارجى . وهنا نرى السيرة تحدثنا عن الدولة
العربية حديثا لا يقل طرافة عن أحاديث اليوم ؛ فى الصحيفة الثامنة
والأربعين بعد المائة نرى المنذر يخاطب عنزة ويقول : « ولكن
يا ولدى من رأى أن أكتب إلى سائر القبائل وأجمع العرب من
الأحياء والمناهل وأتأهب لحرب الملك كسرى فإنه لا بد أن يعود
إلينا ويسطو بعساكره علينا . وأول ما أرسل إلى قومك بنى عبس
وعدنان وفزارة وذبيان وسائر بنى غطفان ، ولا أزال إلى أن أقيم
دولة العرب وأذل عباد النار واللهب ... » لكن بينما المنذر يعمل لجمع
شمل العرب إذ بعمر بن نفيلة يظهر على المسرح كوزير للمنذر ويعرض
عليه خبر التوسط بينه وبين كسرى لإزالة أسباب النزاع ، ثم تقفز
السيرة إلى القرن الحادى عشر الميلادى حيث الحروب الصليبية ،

وتحدثنا عن بطريق جبار وفارس من كبار الفرسان ، يدعى
(بضم موت) الذى هو (بوهيمند Bohemund) والذى هزم سائر
فرسان إيران ، ولم ينقذ كسرى منه إلا البطل العباسي عنقرة . وبعد
حفلات الوداع والتكريم نراه يعود إلى عيلة ومعه المهر والكثير
من الهدايا ، لكن عمه مالك يرفض زواجه بها لأن السيرة تلح في
خلق خصوم لعنقرة يشاطرونه حب عيلة والهيام بها وعنقره يكافح
ضدهم بإخلاصه للعباسيين حينما ، وتنحيه عنهم وقت الملقات حينما
آخر . وفي ثنايا هذا النزاع بين الفارس وقبيلته نقرأ وصفا لمعركة
نشبت بين بنى عامر تحت إمرة خالد بن جعفر والعباسيين بزعامة زهير
ابن جذيمة الذى قتل في هذه المعركة ونبا سيف ابنه ورقاء عندما
هوى به على خالد يريد قتله وإنقاذ والده . وإلى هذه الحادثة أشار
الفرزدق معرضا بأخوال سليمان بن عبد الملك :

إن يك سيف خان أو قدر أبى

وتأخير نفس حثفها غير شاهد

فسيف بنى عباس وقد ضربوا به

نبا يمدى ورقاء عن رأس خالد

ثم تعرض السيرة للغسانيين وتحدث عنهم وعن النصرانية
وتصل بينهم وبين نصارى نجران ثم تصف زواج عيلة بعنقرة وتفهرز
هذه الفرصة وتذكر لنا حلفاء العباسيين ومنهم العدناني ومنهم

القحطاني . وبعد أن تفرغ من ذلك تواصل سرد أعمال عنبرة فتخلع عليه ثوبا إسلاميا ، وتنسب إليه حرب النبي (صلم) ليهود خيبر ، ثم تنتقل بنا من قبيلة إلى أخرى حتى نرى عنبرة في بلاط قيصر الذي وهبه جارية تدعى مريم والتي وضعت لعنبرة ابنه (جوفران) والذي هو في الواقع أحد فرسان الحروب الصليبية المسمى (جودفراي Godfrey) (أوائل القرن الحادي عشر) وتختتم السيرة بالحديث عن الفتوحات الإسلامية ، وعن مصر وشمال إفريقيا ، والأندلس .

والآن بعد هذا العرض نوجه إلى أنفسنا السؤال الآتي ما هي حقيقة هذه السيرة وأين ومتى ألفت ؟ ليس من العسير الإجابة على هذا السؤال فالقارئ المثقف يستطيع أن يقرأها دون كبير عناء وأن يخرج منها بأنها عرض وعرض موفق للقبائل العربية وعاداتها ، لتقاليدها وحروبها في تلك الفترة التي سبقت الإسلام أو مهدت لظهوره ، فهنا نرى العدنانية تنتصر على القحطانية بل وتخالف السنن والأوضاع المعروفة عند العرب من قبل وتلحق بنسبها عنبرة ابن الأمة الحبشية وتزوجه عبلة بنت مالك أحد سادة بني عبس فتمحى بذلك الفوارق الجنسية وتحطم الحواجز القائمة بين أفراد القبيلة الواحدة .

فإن عابوا سوادى عند ذكرى	وجاروا من عناد في ملاي
فلي قلب أشد من الرواسي	ولوني مثل لون المسك نام
وما أسمى بلون الجلد يوما	ولكن بالشجاعة والكلام

وغير هذه المبادئ الجنسية التي تعترف بها السيرة ويقرها الإسلام نجد فيها الشيء الكثير من عادات العرب وأخلاقهم في الحرب والسلم ، كما نعلم شيئاً عن تقسيم الغنائم وحظ الحر وحظ العبد منها ، ونقرأ بعض صيغ القسم تدل على شيء كثير من الاعتزاز بالجنس العربي والخلق العربي كقولهم « ذمة العرب » التي استعمل الإسلام عوضاً عنها (ذمة الله) . وإلى جانب كل هذه المعلومات يجد القارئ مئات من القصائد المنسوبة لعنترة وغيره من الشعراء والشواعر ، وكذلك بعض المقطوعات الخاصة بالندب ، والمعلقات ، وحتى قصيدة الأعشى التي مطلعها .

ودع هريزة أن الركب مرتحل وهل تطيق وداعاً أيها الرجل
وغير الشعر نجد مناظرة لغوية بين عنترة وامرئ القيس نعرف من خلالها كثيراً من أسماء السيف والرمح والدروع والخيل والنوق والحجرة والحيات .

أما وطن السيرة فهو مصر بدليل التعبيرات المصرية ، فنحن نقرأ فيها مثل (فرحنا بسلامتك) و (ياخوى الحمد لله) و (لحد الآن) و (إكراما للعين تسكرم ألف عين) إلى جانب ذكر مصر وبعض مدنها . عرفنا الآن موضوعات السيرة ووطنها . أما عصر تأليفها كما هي بين أيدينا الآن فيرجح أنه كان في أواخر القرن الحادى عشر مع الإشارة إلى أن القصص كثيراً ما غيروا فيها حذفاً وإضافة كما يتضح لنا ذلك عند قراءة الفصول الخاصة بالحروب الصليبية .

قصصنا الشعبي المصري

محمد بن دانيال

إذا ذكر هذا الضرب من الأدب الشعبي التمثيلي ، وجب على الباحث قبل أن يعرض لهذه الشخصية العظيمة في تاريخ الأدب العربي المصري أن يلقى نظرة عامة على هذا الفن الذي نبغ فيه المترجم له أعني (خيال الظل) .

يرجح المتصدرون لدراسة هذا النوع من الأدب من المستشرقين الألمان ، وعلى رأسهم (جورج يعقوب) أن الوطن الأصلي لهذا الفن هو بلاد الهند ، وأن أقدم نصوص عرضت له هي تلك التي تسمى في الأدب السنسكريتي (تيره جاثا) أي « أغاني الراهبات » ، فقد جاء ضمنها حوار لطيف بين إحدى الراهبات البوذيات وبين شخص يرادها عن نفسها ، وفي هذا الحوار يرد ذكر هذا النوع من التمثيل . فالراهبة تقول له : — إنك تدفع أيها الأعمى ، وتكالب على لا شيء إنك تنهالك على شجرة ذهبية رأيتهما في حلم جميل إنك تجلس مع جموع الناس الفقيرة لمشاهدة خيال الظل . ويذكر عالم فلسفي هندي يسمى (اوراها مهيرا) عاش في القرن السادس الميلادي في كتابه (بركة سمعيتا) أن كسوفاً سيوقع للشمس ،

وأن هذا الكسوف سيسبب خسائر كبيرة لطبقات مختلفة من الناس منهم أصحاب (خيال الظل).

وفي غير الهند وسيلان يستطيع العلماء تتبع انتشار هذا الفن في جزائر جاوه ، وسيام ، وفي الصين . ويرجح هؤلاء الإخصائيون أنه عن طريق الصينيين جاء هذا الفن إلى العالم الإسلامي وذلك أن المؤرخ الفارسي رشيد الدين المتوفى عام ١٣٨٨ م يقول في كتابه (جامع التواريخ) المحفوظ ضمن مخطوطات دار الكتب في مدينة (ميونخ) وتحت رقم ٢٠٧ عندما عرض للحديث عن حاشية ابن جنكيزخان : إن لاعبين صينيين جاءوا وكانوا يلعبون خلف ستارة ألعابا عجيبة ، وكان من بين الشخصوس شخص يمثل رجلا ذا لحية بيضاء على رأسه عمامة شد في ذيل حصان . فسأل ابن جنكيزخان : من يمثل هذا الشخص ؟ فقل له : أحد الثوار من المسلمين وهو يجلبه الجنود على هذه الصورة من المدن . فأمر بوقف اللعب ، وطلب إحضار بعض الحلى من الخزانة كما أمر أيضا بإحضار الكؤس المطعم بالأحجار الكريمة ، والذي يستطيع الشخص شراءه من بغداد أو بخارى . كذلك الخيول العربية ، وبعض حلى العرب وجواهرهم الثمينة ، وبعض أدوات الزينة الفاخرة . كما أمر بإحضار ما يقابلها من المصنوعات الصينية الفنية . فلما أحضرت الأخيرة وقارنها بالعربية ظهر الفرق الشاسع ثم قال : — أفقر عربي يملك الكثيرين من المالك الصينيين بينما لا يملك أحد كبار موظفي الصين أسيرا مسلما

واحدًا . وقد يكون هذا لحكمة شاءها الله أراد بها أن يختبر مرتبة الشعوب كما قدرت فدية المسلم لجنكيز خان بأربعين قطعة من الذهب بينما فدية الصيني أذن طويلة (حمار) ، فكيف يستطيع إنسان رغم هذه الأدلة أن يحتقر الشعوب الإسلامية ! وبعد ذلك عفا عنهم على ألا يعودوا لمثل هذا العمل ثانياً . فمن هذه القصة التي يرويها صاحب جامع التواريخ يستشهد العلماء على العلاقة الكائنة بين الفنين الصينيين والإسلامي من ناحية وعلى انتقال (خيال الظل) إلى المسلمين من ناحية أخرى .

ولعل أقدم إشارة في الأدب العربي إلى هذا الفن حسب رواية صاحب كتاب فوات الوفيات (الجزء الأول ص ٢٤٨ طبع بولاق عام ١٢٨٣ هـ) هي تلك التي جاءت في الأبيات الثلاثة المنسوبة لوجيه الدين ضياء بن عبد الكريم الذي عاش في القرن الثالث عشر الميلادي ، والتي ذكرها الأبيشي في المستطرف (باب في ذكر الدنيا وأحوالها وتقلبها بأهلها والزهد فيها) وقد شبهها بعضهم بخيال الظل فقال .

رأيت خيال الظل أعظم عبرة لمن كان في علم الحقائق راق
شخصاً وأصواتاً يخالف بعضها بعضاً وأشكالاً بغير وفاق
تجىء وتمضى بابة بعد بابة وتفتي جميعاً والمحرك باق
ولم يقتصر ذكر هذا الفن المسرحي على (فوات الوفيات)
و (المستطرف) بل هناك كثير من المصادر العربية خاصة تلك التي

عنيت بمصر تاريخها وأدبها كابن إياس والمقرئى التى تحدثت عنه حديثا فياضا ، ولا سيما بعد أن أصبح هذا الفن حرفة مصرية ، فابن إياس يذكر فى تاريخه أنه فى عام ٨٥٥ هـ (١٤٥١ م .) رسم (جقمق) السلطان بحرق شخصو صخيال الظل جميعها ، وفى موضع آخر يقول ابن إياس : — أشيع أن السلطان سليم شاء لما كان بالمقياس أحضر فى بعض الليالى صخيال الظل فلما جلس للفرجة قيل إن المخايل صنع صفة باب زويلة وصفة السلطان طومان باى لما شفق عليها ، وقطع به الحبل مرتين فانشرح ابن عثمان لذلك وأنعم على المخايل فى تلك الليلة بثمانين ديناراً ، وخلع عليه قفطاناً مخملاً بالذهب وقال له : — إذا سافرنا إلى استنبول فامض معنا حتى يتفرج ابني على ذلك : ويرجع أن هذا هو أول عهد الأتراك بصخيال الظل كما أن ذلك العصر كان فاتحة دخول هذا الفن فى أوربا عن طريق تونس وإيطاليا ، ألمانيا وفرنسا .

من كلام ابن إياس يفهم أن هذا الفن أصبح فى مصر حرفة وأصبح فى استطاعة الخيال أن يعبر به عن الأحداث التاريخية لكن ليس معنى هذا أن عهد المسرح المصرى به يرجع إلى ذلك العهد فلدينا بعض المسرحيات المصرية التى يرجع تاريخها إلى القرن الثانى عشر الميلادى مثل لعب حرب السودان ، ولعب حرب العجم ، ولعب المركب ، ولعب الدير . وأخرى وضعت فى القرن الثالث عشر وهى تعتبر أحسن ما كتب فى هذا الفن أعنى فى القصص العربى

المصرى وهى طيف الخيال ، وعجيب وغريب ، ومتميم ، وكلها من وضع الأديب المسرحى الشيخ شمس الدين بن عبد الله محمد بن دانيال ابن عبد الله الخزاعى المتوفى سنة عشر (أو إحدى عشرة) وسبعائة هـ (١٣١١) م وكان طبيباً مصرياً للعيون وشاعراً من أهم الشعراء الذين عرفتهم الكنانة فى ذلك العصر . ومن شعره فى حرفته :

ياسائلى عن حرفتى فى الورى وضيمتى فيهم وإفلاسى
ما حال من درهم أنفاقه يأخذه من أعين الناس
أما مسرحياته فكلها هزلية ، وهى من مخلفات العصور الوسطى . وقد وضعها أيام الظاهر بيبرس (١٢٦٠ - ١٢٧٧ م .) ويرجح أنها ألفت مباشرة بعد عام ١٢٦٧ م كما يتضح لنا ذلك من مقدمة المسرحية الأولى المعروفة بطيف الخيال . أما اللغة التى استخدمها ابن دانيال فى تواليفه هذه فهى الشعر والنثر المسجع ، ومن حسن الحظ أن المواضيع التى تناولها يتفق معظمها والأحداث التى يعرضها لنا أحد مؤرخى ذلك العصر كابن إياس أو المقرئى .

ففى طيف الخيال نجد المؤلف يعرض لعصره فيصوره لنا فى المقدمة تصويراً يتفق مع ما ذكره ابن إياس عندما عرض للحديث عن سنة خمس وستين وستائة . فابن دانيال يقول : — لما قدمت من الموصل إلى الديار المصرية فى الدولة الظاهرية سقى الله من سحب الانعام عهداً ، وأعذب مشارب وردّها ، فوجدت مواطن الأنس دارسة ، وأرباب اللهو والخلاعة غير آنسة ، ومن لذة العيش آيسة . وهزم

أمر السلطان جيش الشيطان ، وتولى الخوان والى القاهرة إهراق
البحر ، وإحراق الحشيش ، وتبديد المزور ، واستتاب العلوق
واللواطى ، وحجر البغاة والخواطى ، وشاعت بذلك الأخبار ، ووقع
الإنكار ، واختفى المسطول فى الدار ، وقد آذى الخلاعة غاية الأذى
وصلب ابن السكازونى وفى رقبته نيازية^(١) . فدعانى بعض أصدقائى
إلى محله وأزلى من عياله وأهله واعتذر إلى عن تقصيره فى الإكرام
إذ لم يأتنى بدمام وقال : قد غلب على ظنى أن ابا مرة (الشيطان)
قد مات وعسد من الرفات فقم بنا نبيكيه ، ونصف الحالة ونرثيه ،
فابتدأت وقلت فى معنى هذه الواقعة التى وقعت :

مات يا قوم شيخنا إبليس وخلا منه ربه المائوس
ونعانى حدسى به إذ توفى ولعمري مماته محدوس
هو لم يكن كما قلت ميتا لم يغير لأمره ناموس
ومن ثم زى الشاعر يستمر فى تصوير إبليس وما حل بأنصاره
وأعوانه من الخمارين والحشاشين ثم ينتقل إلى الخليعين والخليعات فيقول :

وفتى قائل لقد هان عندى بعد هذا فى شرها التجريس
كم خليع يقول ذا اليوم يوم مثل ما قيل قطرير عبوس
وقضيب وزجس وسعاد با كيات وزينب وعروس
ذى تنادى حريفها لوداع لا عناق لا ضم لا تبويس

(١) وفى صلبه يقول ابن دانيال

لقد كان حد السكر من قبل صلبه خفيف الأذى إذ كان فى شرعنا جلدا
فلما بدا المصلوب قلت لصاحبي ألا تب فإن الحد قد جاوز الحد

وهكذا نرى الأفق يتسع أمام الشاعر فيخلق فيه ويسجل لنا
حياة اللهو والفجور في تلك العصور تصويرا دقيقا رائعا ثم يختم
قصيدته بقوله :

إرحلوا هذه بلاد عفاف وسعود الخلاع فيها نحوس
من لنا بعد ذلك الشيخ إلف وسـمـير ومؤنس وأنيس
لا ترى فتى ضاحك السـن وكل يبدو له تعبـس

وحدث آخر من الأحداث التاريخية التي وقعت أيام الظاهر
بيبرس ونجد صداها عند ابن دانيال هو وصول الإمام أبي العباس
أحمد بن الخليفة الظاهر العباسي من بغداد واحتفاء السلطان به كما هو
مدون في المقرئ (الجزء الرابع ص ٩٤ وما بعدها طبع المليجي)
فقد تناول شاعرنا هذا الموضوع وخالعه على شخصية من شخصيات
مسرحية أسماها (الأمير وصال) يقدمها للنظارة بعد مرثيته
لأبي مرة . فطيف الخيال ينادى : (يا أمير وصال) . فيدخل جندي
عليه شربوش (يروي المقرئ أنه يشبه تاجا مثلث الأضلاع ويلبس
دون عمامة) ويقدم نفسه كالأمير وصال ، ويتحدث عن نفسه
وخصاله فهو كالأفمى ، ويلوط أكثر من أبي نواس ، ويصفع أقلاما
أكثر من الخباز ، ويفترس أكثر من النار ، ويشرب أكثر
من الرمل ، وأنه أظهر من كوكب ، وأدور من لوب . فيمدحه
طيف الخيال ويقول له ما معناه من يترك من الآثار مثل ما ترك لن
يموت أبدا ثم يلتفت الأمير وصال بعد أن مدح الأيام الحالية وخاطب

طيف الخيال مكلفا بإياه إخبار كاتب سره (التاج بابو ج) . فيظهر (التاج بابو ج) ويقبل يد الأمير فيكلفه إحضار مكتوب خاص فينادى (التاج بابو ج) : سر كيس أحضر حافظة الورق وحافظة النقود فيحضرها العبد فيقرأ (بابو ج) بأمر طيف الخيال تقليدا وفيه يعين (وصال المحبة) ملكا على المجانين ويمتد ملكه فيشمل خرائب وأكوام مصر العتيقة ، والأهصام ، وما جاورها من تلال ومقابر . وبعد ذلك يقول طيف الخيال : يا شيخ بابو ج أين نسخة من القصيدة التي وضعها الشاعر (صر بع) ^(١) ؟ فيخرجها التاج بابو ج من عيبة ، وينشدها فنجد أن الأمير وصال يريد الزواج فيستدعى قوادة معروفة تسمى (أم رشيد) فتخبره عن فتاة ، ويرضى بها فيحضر العاقد (المأذون) ويقرأ خطبة النكاح ، ويتم العقد . ويتضح بعد ذلك أن الأمير وصالا فقير — مال المال ، وحال الحال ، وذهب الذهب ، وفضت الفضة ، وسلب السلب — وفي ليلة الزفاف تبين للأمير قبح العروس فغضب وهاج وحد الدبوس وضرب المواصلات والعروس وهدد زوج أم رشيد (الشيخ علق) بالضرب . ثم يلتفت طيف الخيال إلى الشيخ علق ويقول إننا نحتاج إلى الطبيب (يقطينوس) لأنه في رأينا لا يقل عن جالينوس ثم يتكلم الأمير وصال مع طيف الخيال (١) هو والد الشاعر — صردر — الذي توفي في القرن الخامس

الهجري وقد هجاء البياضى بيتين هما :

لئن لقب الناس قدما أباك وسموه من شحه « صر بعرا »
فأنك تنسئ ما « صره » عقوقا له وتسميه شعرا

ويخبره أنه لم يبق إلا السفر للحجاز لكي يغسل ذنوبه بماء زمزم
 ويزور مقام إبراهيم وروضة محمد فيختفيا من المسرح .
 وبذلك تنتهي الرواية أو البابة بلغة ذلك العصر . لكن قبل
 أن أختم الحديث عن هذه الرواية وأنتقل إلى غيرها من وضع ابن
 دانيال أيضا أقرر أنه من حسن حظ العالم أنه يملك منها ما لا يقل
 عن ثلاث مخطوطات في مصر ، واستنبول ، والاسكوريال . فهذه
 المسرحيات تشهد حقاً للشاعر بالعبقرية ووفرة الثروة اللغوية إلى
 جانب تميزه في فني العرض والتمثيل . فابن دانيال يضع أغاني
 مسرحياته وألحانها ، ويفرض على المحرك للشخوص طريقة العرض
 وكيفية الأداء . ففي مقدمته لرواية (طيف الخيال) نراه بعد البسطة
 يحدثنا عن الوازع إليه في هذا التأليف فيقول : — كتبت إلى أيها
 الأستاذ البديع ، والماسح الخليع لا زال سترك رفيعا ، وحجابك
 منيعا تذكر أن (خيال الظل) قد مجته الأسماع ونبت عنه لتكراره
 الطباع ، وسألتني أن أصنف لك من هذا النمط ما يكون بديعا من
 أشخاص السقط ، فصعدني الحياء فيما رمته مني أن ترويه عني .
 ولكن رأيت تمنى من هذا المرام يوهمك أني قاصر عن هذا الاهتمام ،
 واهن الفكرة عاجز الفطرة عن غزارة الينبوع وأجابة الخاطر
 المطبوع فجأت في ميدان خلاعتي وأجبت سؤالك لساعتي وصنفت لك
 من بابات المجون والأدب العالي لا الدون ما إذا رسمت شخوصه ،
 وبوبت مقصوده ، وخلوت بالجمع ، وجلوت ، الستارة بالشمع

رأيت بديع المثال يفوق بالحقيقة ذلك الخيال فإذا دعيت إلى مجلس
السرور فأخرج طيف الخيال مكان القور (فتحات مستديرة في
الستارة) واستبد بالذئيد وغن في راسه بهذا القصيد . وبعد أن
ذكر المؤلف الذئيد نراه ينتقل إلى (الرئيس) فيقول له : فإذا فرغ
الرئيس من هذا الإنشاد ويشرع فيما بنى وشاد ثم ينادى يا طيف
الخيال يا كامل الاعتدال ، فيخرج شخص أحذب وينقض كالبازي
الأشهب ، فيسلم سلام القادم ، ويقف مطرقا كالواجم ، فيرد الرئيس
عليه السلام ، ويتلقاه بهذا المديح قبل الكلام .

وهنا نرى ابن دانيال يتمدح بالأحذب والحدبان ويتغنى بهم
وبخصالهم وهو يجمع في هذه القصيدة بين الهزل والجد فمنها قوله :
أم هل زين المتن إلا ردفه حسنا فكيف بمن له ردفان
والعود أحذب وهو الهى مطرب ولقد سمعت بنعمة العيدان
وكذا سفين البحر لولا حذبة في ظهره لم يقو للطوفان
ومدبر الا كسير يدعى أحدبا في علمه والقسط بالميزان
وإذا اكتسى الإنسان قيل تمثلا بالمدح قامت حذبة الإنسان
وبعد أن يفرغ الرئيس من هذا النشيد يأخذ في
عرض شخوصه .

عجيب وغريب

وهذه قصة أخرى لابن دانيال ، ولا صلة لها بتلك التي سبق لي أن عرضتها من قبل وسيرى القارىء كيف أن المؤلف سلك في وضعها مسلكا عجيبا في عالم التأليف وغريبا في هذا النوع من التصنيف . فهو لا يكتب مسرحية متصلة الأبواب بل يهجم على الحياة المصرية الشعبية في ذلك العصر ويصورها لنا تصويرا فريدا في نوعه أقرب إلى الصور الناطقة منه إلى شيء آخر فيسدى بذلك خدمات جليلة للمؤرخ والأديب لأنه يبرز له ناحية من نواحي حياة الشعب قلما يقع نظره عليها في الكتب التاريخية ، وقد تكون هذه الناحية مصدرا من أجمل المصادر لفهم حياة الأمة فهما لا غبار عليه ، وللإديب الذي يقرأ على لسان أشخاص من عامة الشعب اللغة الدارجة والمعاني المتداولة في أسلوب عربي رصين . فابن دانيال تناول كل تلك المعاني الشعبية وعبر عنها بالفاظ مقدودة مفصلة تم عن غزارة مادته اللغوية وثروته الأدبية . وقد تناول في « عجيب وغريب » وصف الحياة المصرية في الأسواق ، فقدم لنا أشخاصا يمثل كل شخص منهم جالية من الجاليات التي استوطنت مصر ، أو حرفة من الحرف أو مهنة من المهن فيعرض لنا سبعة وعشرين شخصا منهم غريب الساساني ، وعجيب الواعظ ، وحويش الحاروي ،

وعسيلة المعاجيني ، ونباة العشاب ، ومقدام الآسى صاحب المباحض
والمواسى ، وحسون الموزون ، وشمعون المشعبد ، وهلال المنجم ،
وعواده الشرماط ، وشبل السباع ، ومبارك الفيال ، وأبو العجب ،
والصانعة ، وأبو القطط ، وزغير السكبي ، وناتو السودانى . وتبين
رأى ابن دانيال وغايته من بابه هذه من مقدمته إذ يقول : قد
أجبت سؤالك أيها الأستاذ الطريف ، والماجن اللطيف ثانية لكي
لا تظن همى فى الأدب متوانية ، وأنتك بغريب ، وألحقك بعجيب ،
وهذه البابة تتضمن أحوال الغرباء والمحتملين من الأدباء الآخذين
بذلك الشأن المتكلمين بلغة الشيخ ساسان . فتى دعيت إلى مجلس
الإيناس فأبدأ عند جلاء الستارة بمدح من حضر من الناس ، وغن
باتقان فى عراق . ثم ينشد نشيدا مرحبا بالحضور يخرج بعده
شخص ويقول أين تلك الأيام وطيبها ، وحسن تلك الأوقات
وأعاجيبها فرحم الله شيخنا ساسان ، فلقد كان انسان عين كل انسان
قدوة الأدباء وأئيس الغرباء ، فجمع الله كل محب بسكنه ، ورد كل
غريب إلى وطنه . وينشد بعد ذلك قصيدة يصور لنا فيها أخلاق
الساسانيين وعاداتهم تصويرا صادقا جميلا فهو بعد أن يشير إلى
ماضيهم الزاهر بقوله :

أين زمانى الذى تقضى	وأين جاهى وأين مالى
وأين خفى وطيلسانى	وأين قيملى وأين قالى
وأين عيشى وأين طيشى	وأين حسنى وحسن حالى

على جلودكم الجلود المسلوخة ، واشربوا نقيع التين لتصبح وجوهكم مصفرة وبطونكم منفوخة ، وأخترقوا الصفوف في الجوامع ، ولجوا على الأخشان بالطلب في الشوارع ، ولتكن أنحر ملابسكم الاسمال ، وأكبرهمكم جمع المال وسيروا بهاتين تأمنوا الإفلاس والدين ، فصحة العين بإنسانها وصحة الإنسان بالعين . وبعد ذلك ينشد نشيدا ويختم حديثه بنثر مسجع وينصرف ، فيظهر حويش الحاوي فيعرض ثعابينه وأنواعها وخواص كل واحدة منها ، وبعد أن يفرغ من ذلك يرفع حق الدرياق على يديه ويفتحه ويشير إليه ، ويتحدث عنه وعن تركيبه ثم ينصرف ، ويخرج عسيلة المعاجيني ويرفع على يده حقا من الأحقاق وينشد في عراق :

يا من يذوق لتجريب معاجيني ومن يسلاواه في سر يناجيني .
عندي ذخائر أصناف مجربة خبأتها في مصونات الأجاجيني
ثم يقول : أين هو صاحب الحمضة في معدته ، والحصى في كليته ؟ أين الحبس عن حلاله و... وبعد أن يعرض لساثر الأمراض وما أعده لها من معاجين يختم حديثه بقوله . فاغتنموا رحمكم الله هذه المنافع بثمان تمر أو خيارة مرة واقبلوها مني بهنا قبل أن تقولوا كان هنا . ثم ينصرف ويدخل نباتة العشاب فيعرض ما عنده ، فهو خليفة (ديسقوريدس) وسبط ابن البيطار العارف بالأصول ، والفروع ، والأوراق ، والأزهار ، فيعرض ما عنده من أصول وبزور وصموغ وعصارات وزهور عرض العالم النباتي والطبيب الفنى

فما من حشيشة في الأرض نابتة إلا ولها في الجسد علة ثابتة . وبعد
أن يفرغ من الحديث عن هذا العلاج النبأى يتحدث عن نبت
المنذورة ذات الفوائد المشهورة فالحبة تقلب البغضاء محبة ، وقيمة
الذرة منها درة أين الذى جفاه معشوقه أو غضب مولاه أو صديقه
دلوا على من غضب السلطان عليه أو تحببته الشيطان ارشدوا إلى من
ضعفت قواه ... وبعد أن يعدد كل فوائد النبات والأعشاب يودع
الحضور بشعر جميل فى الحشائش وفوائدها ثم ينصرف فيخرج عواد
الشرمط الذى يضرب المرأة وينظر فى المنديل ويشير إلى الكف
ويكتب التعاويذ وينشد شعرا يصف به فائدة الغزائم والرقى
والتأمم والأحراز :

ومن فضله أن العدو إذا بدا لحامله أمسى به متأخرا
يلوح عظيما فى النفوس معظما عزيزا مهيبا فى النفوس موقرا
وذات نزيف بالدماء رأت به عيانا وقد فاضت من الدم أبجرا
وأرملة عطل من الزوج قد غدا به أمرها للخاطبين ميسرا
وبعد أن يفرغ من شعره يقول : اعلموا رحمكم الله أن أسماء الله
تعالى دروع وليس معها تروع فيخرج شخص صغير من أولاده
ويسقط كالمصروع ، فيتجاهل عنه والصبي قد أزيد وتفرغرت
عيناه بالدموع فيقول له الرئيس على : هذا وقت تمامك ورقاك ،
وعزائمك ، فيقول : أجل ، ويدنو منه ويقول : الوحا الوحا العجل
العجل ، ويحمل حرزا من تلك الحروز بيمينه ، ويضعه للصبي فوق

جبينه ويقول أقسمت عليكم معاشر الجن والشیاطین والأبالسة
المتمردين من جنود الشيخ أبي مرة اللعين إن كنتم من اليهود
الناقضين للعهود فيأهيا شراها (في العبرية أهيا أشرا أهيا رمز إلى
الله) وإن كنتم من النصارى فبالذى ركب الحمار ، وشدة الزنار ،
وعمل من الطين كهيئة الأطيّار ، ونفخ فيه فطار ، وإن كنتم مجوسا
فبالنار والنور ، والظل ، والحرور ، وإن كنتم مسلمين فبحق
الكتاب المبين ، وبفضل بركات طه ويس ، أجيئوا عزائى ،
واخضعوا لتأمى لا سماء تظلكم ولا أرض تقلكم بالذى أمر البرق
لمع والنجم طلع أى هذا الجان اللابس هذا الإنسان أخرج من
الأنملة وأدخل هذه المكحلة ، فيعطس الصبي ويقول : يا حكيم دخل
كله وما بقى إلا أقله ، فيزجره (فيتوج ميتطرون) ويغنى من حضر
من الزبون ويقول : سد رأس المكحلة بشمعة وادفنها في هذه
البقعة ، فيفيق الصبي ويقعد ويترنم .

جمال وجهى يسى بحسنه كل جنس
بحسن خلقى وخلقى ولطف ودى وأنسى
قد صرت أدعى حبيبا لكل جنى وإنسى
وينصرف فيخرج شبل السباع ومعه الأسد والأتباع ،
فيمتحدث عن فنه حديثا لا يقل روعة وجمالا عن أحاديث السابقين ،
ثم ينصرف ويخرج مبارك الفيال ويقول :

أنظر إلى الفيل في تهويل خلقته

واعجب لإتقان صنع الخالق الباري

كقبة بنيت عمدا على عمد وقيرت ظاهرا بالزفت والقاري

بل كالسفينة في يم قد انقلبت وقد رمى ظهرها رام ببتار

تحال من ورق القلقاس قد نبئت أذناه حين تراه عاديا ساري

ثم يولى الفيل مطرقا لنفسه بتلك الزلومة والصبيان يصيحون

من خلفه : حالومه زلومه ، وتظهر بعد ذلك الصانعة بالمشارط

والكاسات ، وترفع صوتها وتقول : الصانعة يا بنات . وتأخذ في

إنشاد نشيد تعدد فيه أعمالها وشهرتها وعرام الرجال والبنات بها ،

ثم تنصرف فيتقدم أبو القطط والفار في السفط ويشير إلى هرة ثم

بعد أن ينشد نشيدا يقول : اصعد يا نمير إلى الطارة ، واحذر أن

تعض فارة ، وأخرج له أنت يا سمور المذنب ، واتبعه أنت يا سنان

الأشهب ، وخذ أنت الفروة الحمرا ، وأنت الفروة الصفرا ، وأنت

يا سمان الغميط ، وألحقه يا سنجاب في الحيط ، وقف أنت يا طليق على

ظهره وعضه يا أبا الجرذان في ظهره ، فتتمثل الحيوانات ما أمر ثم

يقول : من جاد علينا بالانثار لا ابتلاه الله بأذى الفار ، وينصرف

فيأتي زغير السكابي وأصحابه ، وجراه وكلايه ، ويقعد وينشد :

تعلمت أخلاق هذى السكلاب ومن لى بأمثالها في صحابي

وفاء وصبر وحفظ الدمام وذب عن الخيل عند الضراب

وتسهر إن نمت في قفرة وتحرسني من ضواري الذئاب

كلاب ولكنها فضلت على بعض قوم مشوا بالثياب
ثم بعد حديث طويل ينصرف ويأتي غيره . ولعل من أحسن
شخصيات ابن دانيال التي عرضها هي شخصية (ناتو) السوداني
إذ نرى شخصا يظهر بدبدابه وطرطوره وذرائبه ، ويهز المزاريق ،
ويكر مقبلا في الطريق ومدبرا ، ويبلق عينيه ويفتح بأصابه شقيقه
ويهملج كالبنغل ، ويرقص ويغنى على إيقاع الطبل وينشد :

ناتو ناتو ناتو يا ناتو ناتو

غزلان السودان لولا الصبيان غيره ما ماتوا

ناتو يا ناتو يا ناتو ناتو

دعنا نتمزر ، نكرع ونسكر ، يا مهتار عنبر في كبدي هاتوا

ناتو يا ناتو يا ناتو ناتو

لولا ذى الأمزار مع سمان الفار ما أصبح مختار يهوى ستماته

ناتو يا ناتو يا ناتو ناتو

سمرا محبوبه ، حمرا كالطوبه ، من خلا النوبه يا ماذا فاتوا

ثم يوالى الإنشاد ، فيذكر الطبطاب ، والشرب بالقادوس ،

وغناء جاموس ، وبعد أن يفرغ ينصرف ويأخذ ابن دانيال في عرض

باقى شخصياته عرضا وفق فيه توفيقا عظيما .

وقبل أن نختم الحديث عن بابة « عجيب وغريب » نحب أن

نشير إلى أن ابن دانيال أطلق على شخصياته التي عرضها أسماء تتفق

ومنها فمعجيب من عجيب الدين الواعظ وكان من مشاهير الواعظ في ذلك

العصر ، وغرب لفظ استعمال في غير معناه فأطلق على الفرس كما
نطلق نحن الآن لفظ (خلب) على الفجر أو كما نستعمل لفظ (برمك)
في غير ما وضع له . كما أطلق المؤلف أيضا اسم نباتة على العشاب ،
وهلال على المنجم ، وشبل على السباع ، وميمون على القراد الخ . ولم
يكتف بهذا العرض الجميل لأصحاب تلك الحرف بل نراه يجمع كل لغة
الأسواق ويقابلها بلغة العلماء ، في قصيدة تربو على الأربعين بيتا
جاء فيها :

ولكني رأيت العلم زينا	فعدت إلى المدارس والجدال
وتبت فصرت في الفقهاء أقضى	وأفتى في الحرام وفي الحلال
ونظم الشعر صرت به فريدا	وطلت به على السبع الطوال
وقطعت الدروس بفاعات	بأوتاد وأسباب ثقال
وعلم النحو فيه النصب فني	على من كان ذا جاه ومال
وطببت الأنام فكم أناس	قتلتهم بقبض وانسهال

وبعد أن تحدث عن طبعه وفلسفته رجع فقال :

وعدت إلى المقابر رب وعظ	ومقرى على الرمم البسوالى
وألقيت الحياء وراء ظهري	ولم يخطر ببالي أن أبالي

التميم

وهذه هي البابة الثالثة من بابات ابن دانيال التي عرضنا للحديث عنها فيما سبق ، أولاها (طيف الخيال) وثانيتهما (عجيب وغريب) وثالثتهما هي هذه المسرحية التي تختلف في موضوعها عن البابتين السابقتين اختلافا عجيبا ، وإن اتفقت معهما في الأسلوب والهزل . فمن جهة الموضوع فهنا نقرأ شيئا عن الحب وحيل المحبين لكنه حب ليس من ذلك النوع الذي نجده عند مجنون ليلى ، وقيس لبنى ، وكثير عزة ، وجميل بثينة ، ومرقش أسماء ، وكثيرين وكثيرات ممن تزدحم بهم كتب الأدب العربي بل حب نواسي . وشعر ابن دانيال ليس أيضا من نوع الشعر الذي نقرأه للغزلين من شعراء العربية كابن أذينة ، وابن أبي ربيعة ، وابن ذريح ، وقيس بن الخطيم ، وسويد بن أبي كاهل ، والعرجي ، بل شعر قصد منه إلى جانب التمثيل والغناء اللهو والمرح . فهو شعر غنائى تمثيلي هزلى ، ووضع للمسرح خاص وهو مسرح (خيال الظل) المصرى ، وصيغ في أوزان خاصة يتفق تقطيعها وألحان المسرحية الموسيقية . ثم لا يفوتنا أن ابن دانيال ألف هذه القطع في مصر ، وعرضت على المصريين ، لذلك عني

في شعرها ونثرها بأن يكونا مصريين . وحيل (المقيم) ليست
كتملك التي نقرأها في المؤلفات التي أفردت للحب وأهله ، وحيلهم
ونواديرهم ، بل هي حيل مصرية ؛ فنرى مثلاً نقار الديكة ، وتناطح
الخراف ، وما إلى الديكة والخراف من طيور وحيوانات كانت وما زالت
إلى اليوم موضع لهو ورياضة بعض المصريين في كثير من القرى
والأرياف . وقد أشار المؤلف إلى ذلك في مقدمته التي يقول فيها بعد
البسملة : قد أجبت أيها الأستاذ المعلم والمطبوع المترجم سؤالك الثالث
وخضت معك خوض الحادث وارتجلت لك هذه البابة كراماً بالإجابة
وهي بابة المقيم والضائع المقيم وضمنتها طرفاً من أحوال المحبين وطرفاً
من الغزل الذي هو السحر المبين ، وطرفاً من الملاحيم ، وطرفاً من
المجون الذي ما عيب ؛ فإذا ما دعيت إلى صدر من صدور الزمان فاجل
الستارة وغن في أصبهان .

قل لسادات الزمان لا برحمتي في أمان
وبقيتم في نعيم ما تبقى الهرمان
ثم يأخذ ابن دانيال بعد ذلك في عرض شخصوصه ، فيخرج
شخص هيجه الغرام فيبكي بانتحاب ، وينشد متأرها نشيداً يصف
فيه حاله ، وما انتابه من سقم وأرق جاء فيه :

أهل الغرام تجمعوا وتوسلوا وتضرعوا
موتوا تعيشوا في الهوى وتمزقوا وتقطعوا
وخذوا حديث مقيم عمن سواه أو دعوا

صب سماء دموعه من صباها لا تقلع
لم يبق إلا أضلع من سقمه تتقمقع
وادی العقيق بجفنه والدمع منه ينبع
ثم يقول : واه واه ، واحباء ، وإقلباه . المتيم مسكين ذبح بغير
سكين ، من أرسل ناظره أتعب خاطره والعاشق كل شيء يذكره ،
لمعان البرق يؤرقه ، وهبوب الريح يقلقه ، وإذا دنا الليل منه يهرب
النوم عنه ، ثم ينوح ويعدد في رهاوى ويقول :

هكذا كل أخى وجد يكون أم أنا وحدى لى هذا الجنون
من معيى ومعينى أدمع وعيون الصب فى الصب معين
وبعد أن يفرغ من نواحه يقول : أيها السادة مسيتم بالسعادة ،
ولا بليتم بمشق متذل وإفلاس عاشق متعلل . عبدكم المتيم الهائم فى
الضائع اليتيم الذى فتن الأبواب وغلق على الملاح الباب . ذو القوام
الأنهيف ، والخصر المخطف ، والطرف الأدعج الأوطف ^(١) ، والردف
المردف ، والجبين الأبلج ، والشعر المفاج . الذى خذه الورد وعذاره
البنفسج الكامل الأوصاف القليل الإنصاف ... ثم ينشد موشحاً
يردده بقوله إنه هو الموصلى لا يدق إلا أبواب الكبار ، فيخرج شخص
دميم ، ويقول غلامكم القديم ، ويضطر من فنه بصفير ويتبع تصفيقه
بشخير ، ويقول : يا مقيم خانك الاعتقاد وتبدلت بالياسمين شوك
القتاد ، وعرضت عرضك لمعترض وتداويت بمعترض ^(٢) ... وبعد

(١) وطف الرجل كثر شعر حاجبيه وعينه .

(٢) الهرض الحصف الذى يظهر على الجلد .

ذلك ينشد شعرا في محاسن الصغير على الكبير ثم في الختام يقول :
 ألا يزدرد الإنسان الصغير ولا يزدرد الكبير ؟ فيقول له المقيم : فض
 الله فاك ، ولا سملك ولا كفاك ... أين الهلال من قر الابدار ؟
 وأين الرمان من الجلنار ؟ وهل يفضل البلح على التمر ؟ أو الحصرم
 بلذة الخمر ؟ ... وبعد ذلك يظهر خادم المعشوق واسمه (بابا بيرم)
 ومعه رسالة إلى المقيم ، وكان قد سبق أن مدح (بابا بيرم) المقيم لدى
 المعشوق فبين له خصاله الجميدة ، ونوع الحيوانات التي لديه ، وحبه
 للرياضة ، وفرح المعشوق وكتب للمقيم بذلك . فسر المقيم سرورا
 عظيما ورقص فرحا وأحضر الخمر والكاس وغنى حتى جلب المعشوق
 فغنيا بالتناوب . وفي الدور الختامي يغنى المقيم ديكة (أبو العرف صباح)
 مالى إلا ديكى أبا العرف صباح الفاره^(١) في الديوك نقرا وصياح
 قد مد إلى النقار عنقا وجناح فاقبله وما عليك في ذاك جناح
 فيقول اليتيم : لا تذكر ديكك صباح حتى ترى القيم صياح الذى
 ما قاومه في الديوك أحد وهو لذلك يميضة البلد .

ديكى من الهنود حذار من بأسه الشديد
 إن كان منقاره فطارا^(٢) فإن كفيه من حديد
 كأنما عرفه عقيق يرى على ورده الحدود
 له إذا هاجه نقار من خصمه وثبة الأسود
 وهنا يعرض المؤلف للنظارة منظرا من أجل مناظر البابة إذ

(١) فره الرجل حذق ومهر ونشط وخف .

(٢) سيف فطار أى فيه تشقق ولا يقطع

يصور لنا نقار الديكة وكيف كان يجري فتحط الرهون على يد الحكم
(زاهون) وبخرج ديك اليتيم ويثلوه ديك المتيم فينشد المتيم ويقول :
أهلا وسهلا بطلعة الديك كأنه عروة الصعاليك
أتى بتاج كأنه ملك بين دجاج مثل الممالك
بطليسان مثل الحرير مع التبر على منسكبيه محبوبك
رأيتك إذ يسير من ذنب كأنه الصالح بن رزيك^(١)
ويل لديك أتى يناقره وهم في حربه بتجريك
فإنه يستبيح من دمه ما لم يكن مثله بمسفوك

فيقف الحكم بينهما بعصاه فينقرانه في قفاه فيأخذ نفسه بالأهبة
ثم يتقدم قبل كلامه بالخطبة ويقول : الحمد لله فائق الأصباح ، وملهم
الديك تقسيم الزمان بالصياح . الذي توجه بتاج من عقيق ،
وبرقع ببرقع من الشقيق وألبسه الطليسان المديح ، وأقامه في صورة
الملك المتوج ، وخصه بالكرم والإيثار ، وفضله بذلك على جميع
الأنبياء ، وميزه بالذب عن الحرم ومقاومة الغريم ، والصلاة
والسلام ، والتحية والإكرام على سيد المرسلين رسول رب العالمين

(١) طلائع بن رزيك هو أبو الفارات الملقب بالملك الصالح وزير
مصر ... ولما مات الفاتر وتولى العاضد مكانه استمر الصالح على وزارته
وزادت حرمة وتزوج العاضد ابنته فاغتر بطول السلامة وكان العاضد
تحت قبضته في أسره فلما طال عليه ذلك أعمل الحيلة في قتله فاتفق مع قوم
من أجناد الدولة يقال لهم أولاد الراعي وتقرر ذلك بينهم ... وجرحوه
وحمل إلى داره مجروحاً دمه يسيل وأقام بعض يوم . ومات يوم الاثنين
١٩ رمضان عام ٥٥٦ هـ . (راجع ابن خلكان ج ١ ص ٢٨٩ — ٢٩٩) .

وعلى آله وأصحابه أجمعين وبعد فإن مكافحة الأفران لا تختص بنوع من الحيوان وأحسن ما تفرج عليه السوق والملوك مناقرة الديوك لأنه مناصلة ومناضلة ، ومقاومة ومنازلة وهذان الديكان قد وقفا للاصطلام^(١) وأصرا على الإقدام ، فمن هرب من النقار والتجأ إلى الفرار وجب على العاقلة ما تقرر ، وليس بعار إذا عاد المغلوب وتكور باسم الله عليك يا صباح وأعيذك بالله يا صباح ... ثم يناقر الحكم بينهما على ذلك المثال وعادة الخيال ، فيستقفي ديك اليتيم من النقار وينزوي بالهزيمة والفرار ، وهنا يصيح اليتيم ويقول : ديكى والله ما انهزم ولا على الفرار عزم ، وإنما حضر الوقت المعلوم للأذان فانصرف من اللعب إلى تسبيح الملك الديان . وهذه عادة هذا الديك المبارك فى إلهامه وإقباله وإقدامه ، ولئن هرب ديكى من صباح فدونك كبشى النطاح وكل لاعب يعرف كبشى الذى كأنه الأسد الوحشى يكاد ينطح ناطح البروج ، ويهدم بقرنيه سد بأجوج ومأجوج ، فيعلن الحكم ذلك فيقبل المقيم ويقول إن خروفه من البشمور^(٢) واسمه (وحشى) أما خروف اليتيم فاسمه (أبو الشين) . ومن ثم زى أم اليتيم تظهر وفى يدها مبخرة فتبخر خروف ابنها ، وتتحدث عنه

(١) صله قطعه وقيل قطع أذنه وأنفه من أصلهما .

(٢) البشمور بالضم كورة بمصر قرب دمياط ، وفيها قرى وريف وغياض ، وفيها كباش ليس فى الدنيا مثلها عظما وحسنا وعظما ألبا ، وذلك أن الكبش لا يستطيع حمل أليته ، فيعمل له عجلة تحمل عليها أليته وتشد تلك العجلة بحبل إلى عنقه (ياقوت مادة بشمور) .

وعن صوفه وعن وفاة زوجها ويأتى بعدها الحكم فيلقى كلمة تشبه تلك التى ألقاها عند نقار الديكين ، ويحدث أن يهزم خروف اليتيم ويولى الادبار فيغنى كل من اليتيم والمقيم موالا يعقبه حديث لليتيم عن ثوره وبطشه . وعن عنايته هو به . ومن ثم يأخذ فى تعداد محاسن الحديقة التى يقيم فيها هذا الثور فينبهى له المقيم مفاخره بثوره فيحضر الثوران ويقوم الحكم (زيهون) ويلقى خطبة من ذلك النوع الذى قرأناه فى الديكة لكن هذه المرة تدور الدائرة على المقيم إذ يهزم ثوره ويولى فيتألم المقيم ، ويفشد نشيداً يتحدث فيه عن ذى القرنين وما جرى له وبعد أن يفرغ من كلامه ينادى : ياريس على ... إنى أريد أن أصنع من لحمه خوانا للإخوان ، فيستدعى الجزار تعاشير والكبابجي (أبو جمران) فتقام الوليمة ، ويؤتى بالتمر والبخور ، والعود والندلسكن يلاحظ أن اليتيم لا يظهر بل نرى على المسرح شخوصاً أخرى يمثل كل منها رذيلة من الرذائل فنرى المخنث والطفيلي ، ويدور الكلام بين الأخير وبين المقيم ينتهى بطلب المقيم التوبة ثم يلتفت إلى القبلة ويموت فينقل إلى حيث يغسل ويكفن ويدفن ، وبذلك تنتهى البابة الثالثة من بابات ابن دانيال .

لعب التمساح

هذه مسرحية أخرى تعرض لنا صورة من صور الحياة المصرية والتفكير المصرى أو بمعنى آخر فنا من فنون الأدب العربى المصرى فى القرن السابع عشر . وتمتاز عن غيرها بتعدد مؤلفيها ، فهى ليست من وضع مؤلف بعينه بل من تأليف ثلاثة وهم الشيخ سعود ، والشيخ على النحلة ، وداود المناوى ، وتسمى لعب التمساح . أما الفضل فى تعريف العالم الحديث بها فيرجع إلى العلامة المحقق المستشرق الألمانى (بول كالا) فقد حضر عام ١٩٠٦ إلى مصر باحثا عن بعض المخطوطات والشخوص التى تتصل بخيال الظل ولا سيما فهو ثانى اثنين عرفهما العالم العربى كرسا حياتهما لهذا النوع من الأدب العربى أولهما « جورج يعقوب » الذى كان مديرا لمعهد اللغات الشرقية بجامعة كيل ، وثانيهما كان مديرا لمعهد جامعة بون على ضفاف الرين . وشاء الله أن يوفق « كالا » فى حضوره إلى مصر فعثر عام ١٩٠٩ مع شخص يدعى درويش القصاص على مخطوطة عنوانها « ديوان كدس^(١) من كلام الشيخ سعود والشيخ على النحلة وداود العطار »

(١) الكدس والكداس هو ما يجمع من الطعام فى البيدر ، وقيل الكدس والبيدر والعرمة والشغلة واحد . وقيل الكدس جماعة الطعام وكذلك ما يجمع من دراهم وغيرها (أقرب الموارد) .

كما وجد رزمة من المخطوطات في المنزلة تكمل هذه المخطوطة .
وجمع أكثر من ثمانين شخصا من شيوخ خيال الظل التي ترجع
إلى عصر المماليك .

وتبدأ هذه المسرحية بظهور شخص على المسرح يسمى الحازق
فيلقي ما يسمى بلغة القرن السابع عشر برهانة وهي :

تأملوا يا أهل النظر ما قلت في هذا الخيال
من المعاني الراقية مع حسن ترتيب المقال
بيت :

خيالنا هذا المليح على الخلاق ينطلي
ومن يجي بعدى يروم يصنع مثاله يبتلى
بالكمد والقهر الشديد وبالفصص قلبه ملي
ويرجع خائب ذليل في خزي زايد مع نكال
والحاضرين يتمسحوا عليه نساهم والرجال
وبعد أن يفرغ الحازق من هذه البرهانة التي تقع في أحد عشر
بيتا يدخل رجل فلاح يسمى زبرقاش ويأخذ في إلقاء النشيد
الذي مطلعته :

يا لطيف الصنع يا مولى الموالى يا كثير الجود بفضلك تعف عني
حسن ظني فيك أن تغفر ذنوبي يا إلهي لا تخيب فيك ظني
فيقاطعه الحازق وبعد أن يناقشه مناقشة قصيرة يعود الفلاح
زبرقاش إلى الإنشاد فيقول :

يا إلهي أرض إصلاحى شرقي ما يكون الحال وأنا خائف الفضاء
لا أزرع لي خير ولا قدمت تقوى وانقلب فدان صلاحى بالقبايح
كل ما قلب فى سواقى العدل وأزرع ينحصد قلبى يزودنى جراح
والفلاحة فتها وأنت المسامح إن باب عفوك لمصيانى رحمنى
حسن ظنى ...

ومن هذا النشيد يتبين أن الزبرقاش والحازق من قرية واحدة
فتنشأ بين الاثنين صداقة ، ومن ثم يذهب الاثنان إلى النيل لصيد
السماك ، وهناك يطرح الزبرقاش الغابة فى الماء فتخرج سمكة كبيرة
وتجذب الغابة بقوة يكاد معها يغرق الزبرقاش لولا مسارعة الحازق
إلى إنقاذه وبعد نجاحه يخاطب الحازق قائلاً : أسكت يا أخى السمك
بقاع البحر ده فتوة خد منى الغاب وكفانى على وشى :

الحازق : لا أشوف لك عم يعلمك الصنعة .

الزبرقاش : اعمل معروف يا مقدم شوف لى عم يعلمنى .

الحازق : طيب خليك واقف وأنا أجيب لك واحد يعلمك

الصيد . فينادى الحازق ويقول : يا حجاج منصور يا شيخ المماش .

منصور : مين ده إالى بينده ؟

الحازق : تعال جبت لك ولد تعلمه الصيد .

منصور : حاضر يا ابنى .

ثم يخرج الحجاج منصور وخلفه الزبرقاش ويقول شيخ المماش :

يا زبرقاش ماذا أصابك لما واقف تعيط فى دياجى الأسحار

هو خدمات لك افترسكته والا
تقشير (١) أصابك جنب شط الأبحار

زبرقاش :

يا عم يا شيخ المعاش اصغى لى يا من عطيت بين أهل فنك رفقه
قال لى دليلى حين تعلق بالى بغية الصيد واشتغال الضممه
وبعد محاوره زجلية لطيفة بين شيخ المعاش والزبرقاش
يقول الأخير :

يا عم ساهل دا الكلام وحياتك دا الوقت اغنى لك بليلىق (٢) يسكر
يكون على الطار صنعته والمزار وكل داخل إن سمعنا يسكر
من نعمة السيكاه وضربه يسمى اسكندرانى فى الضروبات يذكر
وكل خال إن جا حداه أو خايل خايل عليه وانباغ برخص الأسعار
ثم بعد ذلك ينتهى هذا الرجل من أزجال ذلك العصر بدور فى
مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويختم بدور الاستشهاد ، وفيه
يذكر اسم المؤلف ، ويأخذ الزبرقاش بعد ذلك فى غناء البليلىق المكون
من تسعة أدوار ومطلعه :

يا زبرقاش يا بن الأخيار مالك محتار
والدمع من عينك هدار شبه الأمطار

وبعد الفراغ من الغناء ينصرف مع شيخ المعاش الحاج منصور

(١) اقتشر الرجل عرى من ثيابه .

(٢) بليلىق فرس سباق كان يسبق الخيل وكان مع ذلك يعاب فضرِب

به المثل (يجرى بليلىق ويذم) مثل يضرب لمن يذم مع إحسانه .

إلى النيل للصيد — وهنا يسود السكوت ويخيم الصمت ، وبعد برهة
يسمع صوت الاثنين وهما على الشاطئ يتأهبان للصيد وينشدان
الأنشيد . وبعد الفراغ من الغناء يلقى الزبرقاش الغابة في النيل
حسب إرشادات شيخ المعاش فيخرج تمساح ويلتهم الزبرقاش إلا
رأسه ، فيظل مطلا من فم التمساح . وفي هذه اللحظة تظهر على
المسرح شخصية جديدة ألا وهي شخصية الرخم وهو المضحك
فينشد الفلاح زبرقاش نشيدا غاية في الجمال اقتطف منه :

قفوا أنظروا فلاح مكسور ذليل منهان
جوا حنك تمساح من سالف الأزمان

دور

يا من رماك دهرك في فم دا التمساح
قول لي على أمرك وما دهاك يا صاح
لما بقيت لهفان والسر منك باح
والسر منك باح وانت بقيت لهفان
والدمع من عينك يجري دما طوفان

دور

طول مدتي صياد يا من سأل عني
في صيدهم معتاد لما بقى فني
جيتي وأنا فرحان تاريه بطمني
تاريه بطمني جيتي وأنا فرحان

فيمًا طبق وامسيت باكي وحيني حان
وبعد أن يفرغ الفلاح من شكواه يتقدم الرحم وينشد :
مطلع

قبل الكلام أمدح نبينا الهادي من أنطق الله له الحجارة يا صاح
والضرب جاسم عليه في الوادي وأما الجمل من عظم ما به قد باح
رخم

يا أيها الفلاح فإذا صابك لما بقيت في فم تمساح كاسر
دعوة فقير ولا دعاء من مظلوم ولا مرابط كان بسره حاضر
وبعد أن يفرغ الرحم من دوره يعقب عليه الفلاح بدور آخر .
وهكذا نجد أنفسنا أمام نقاش شعري في غاية الجمال والقوة ثم يأخذ
الاثنان في غناء بليق ينادى بعده الرحم على امرأة الفلاح ، فتخرج
مسرعة ومعها ابنتها ، ويحدث أن يدخل في نفس الوقت شيخ المعاش
فينهر المرأة وابنتها ويطردهما ويعبر شخص أسود ويفنى :

يا عيني لا تنامي لا يجيك الحرامي
يسرقوا بيت الوسيه يضربوك خمسمائه

فيخاطبه شيخ المعاش : يا بربري يا بربري : وهنا يسكت
البربري ويظل صامتاً فيناديه شيخ المعاش مرة أخرى : يا بوسمة .
يا حج إدريس . فيلتفت إليه البربري قائلاً : خبر إيه انت ما يحطش
شوية ملح في عينك وتقول يا حج كاشف ! وبعد حديث طويل
بينهما يعرض عليه شيخ المعاش مبلغاً في سبيل إخراج الفلاح من

فم التمساح فيقبل البربرى . وفي هذه الأثناء يمر رجل مغربى يسمى
الحاج قدور منشدا :

قف أخبرك فى دى زمان القبايح ومن عدم الإنصاف قل الناصح
وأنا مغربى رمال بتختى سارح سبحان من يسترجع الفضايح
وبعد أن يفرغ من إنشاده يعرض عليه شيخ المعاش مبلغا من
المال إذا تمكن بسحره من إنقاذ الفلاح من التمساح ، فيقوم بين
البربرى والمغربى شجار عنيف يشترك فيه فيما بعد عدد عديد من
البرابرة والمغاربة وأخيراً يتفق المتشاجرون على حل ، وهو أن يدفع كل
فريق للآخر مبلغا من المال إذا عجز عن إنقاذ الفلاح فيتقدم البربرى
كاشف نحو الفلاح يريد إخراجه ، وخلف كاشف يقوم بربرى آخر
يدعى عثمان ماسكا بكاشف ويتفق الاثنان فيما بينهما على أن يتكلمتا
لغة سرية (سيم) حتى لا يفهم التمساح قصدهما . أما هذه اللغة السرية
فتلخص فى لفظين (أرز) و (عدس) . أما لفظ (أرز) فعناه أن
يدفع عثمان . بينما لفظ (عدس) يعنى (يسحب) . وبعد ذلك يتقدم
كاشف ويمسك رأس الفلاح ويصدر الأمر (عدس . رز . عدس .
رز) وأخيرا يصيح (عدس . عدس) فينادى عثمان (رز . رز .)
ويدفع كاشف فى فم التمساح مع الفلاح فيستولى الخوف على عثمان
وينادى مغربيين يتمكنان من إنقاذ الفلاح وكاشف بإطلاق بخور
وتلاوة عزيمة ، وعقب ذلك يحملان التمساح على رأسيهما ويسيران
به على المسرح فيشدان نشيدا ختاميا .

لعب المنار

أو حرب العجم مسرحية مصرية ترجع إلى القرن الثاني عشر أو الثالث عشر الميلادي ، وقد وضعت خصيصا لتعالج الحروب الصليبية لذلك سميت بحق « حرب العجم » ووقعت حوادثها في الاسكندرية فاطلق عليها لعب المنار . لم تصلنا كاملة وإن كان قد وصلنا جزء كبير منها في مخطوطة للشيخ سعود والشيخ علي النحلة وداود العطار .

وداود العطار أو المناوى الذى كتب هذه المخطوطة ، ودون فيها لنفسه الكثير من أزجاله هو أحد أبناء مصر الذين عاشوا فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وهو الذى أسندت إليه رئاسة فرقة خيال الظل المصرية التى سافرت عام ١٦١٢ بعد أن أقيمت لها الحفلات الكبرى فى بولاق والاسكندرية إلى استنبول لإحياء حفلات زواج الوزير التركى محمد باشا السابع الذى حكم مصر حتى أغسطس ١٦١١ بكريمة السلطان العثمانى أحمد الأول (١٦٠٣ - ١٦١٧) . ويحدثنا المناوى هذا أنه تشرف بالثول بين يدى السلطان الذى أجزل له العطاء . ومن ثم عادت الفرقة فى عام ١٦١٣ إلى مصر عن طريق دمشق والقدس .

وتبدأ هذه المسرحية بعرض منظر يمثل الأمواج وهى تتكسر على

جزيرة فاروس التي أقيم عليها المنار عند مدخل الاسكندرية ، ومن
ثم يظهر شخص على المسرح يسمى الحازق فيستقبل المنار ويقول :
الذي نعلم به الرئيس الأستاذ الحاكم على ذا المينة وذلك البلاد انى بعد
أبو السداد مقدم على الموارد للشارد والوارد . وبعد أن يفرغ من
هذه المقدمة ينشد البليق الآتى فى وصف المنار .

سمود الأديب يا صاح نظموا عجز الفصاح

بيت

أنظر ذا المنار يا نسان تلقى عمود له بفيان
من بلور وشى مرجان نقشه بالذهب وضاح

بيت

له سلم تراه معقود مبنى بالحكم مرصود
كم جاء له حزين مكمود زالت عنه الأتراح

بيت

وانظر باب شريق قد نار من خلفه رجال أخيار
لما يشهروا البتار يخلو الدما سواح

بيت

باب البحر يا قر عني وله منظر
كم جاله ملك قسور راح مكسور دليلى منجاح

بيت

واقشع يا أولى الألباب قنديلين على الأبواب

كم فيهم فنون وانداب ضياهم خفي المصباح

بيت

والتحقق ترى بالعين مظرف حسن دالبرجين
جواهم رجال يازين يرموا الكافر الفضاح

بيت

باب الوسط ما مثله في حسنه ولا في شكله
له وزرا زهت تعلو على من يكن ججججج
وبعد أن وصف الشيخ سعود النار وصفا دقيقا ، وتحدث
عنه وعن أبوابه والنقش الذي يعلو واجهته تحدث عن آلات الدفاع
المختلفة فقال :

فوق الواجهة يا مجاد سيوف للجهاد يا جواد
وفيه درق فولاد كم بهم بطل قد صاح

بيت

ومن فوق علاه يازين رامى لم يزغ بالعين
لوجاه كل يوم ألفين خلاهم بلا أرواح
وبعد أن سرد مختلف أدوات القتال الخفيفة ختم بليقه بقوله :

وانظر منجنيق صاعد قاعد للعدا رابض
للكافر وللجاحد يا لله يخطفو التماسح

انتهى الحازق من إنشاده والتفت فإذا بمركب من النوع المعروف
بالغراب ترسو ، ويخرج منها رجل مغربي وبعد أن نقرأ وصفا جميلا

لهذه السفينة يتقدم المغربي على المسرح وينشد بليقا يخبر فيه المسلمين
عن الصليبيين والاستعدادات التي يقومون بها لمهاجمة المسلمين ، وقد
جاء في هذا البليق وصف شامل لسائر البلاد المسيحية التي اشتركت
في الحملة وما يجب على المسلمين عمله لهزيمة الصليبيين . وبعد الفراغ
من إنشاد هذا البليق يتقدم الحازق ويطلب ميمونا ليزعق بالنفير
ويدعو القوم لسماع رسالة المغربي وقد استهل الحازق نداءه بقوله :

صيحوا على ميمون أخى يحى ويزعق بالنفير

دا المغربي ادى قد آتى ياخذ من أقصى البلاد
قد جا يخبر يارجال عن اللثام أهل العناد
قصدي أجمع العسكر لهم لعل نظفر بالمراد
وبعد ذلك نراه يعدد لنا حكمة الجهاد ، وما أعده الله للمسلمين
والمجاهدين في الآخرة فيقول :

يا عصابة الدين والصلاة يا مسلمين يا أهل الصيام
قوموا إلى الفرض الذى قد أفرضوا رب الأنام
فمن يبادر يلتقى له فى الجنان أعلى مقام
مع الكرام أهل التقى وينجبر قلبه الكسير
صيحوا على ميمون أخى

سلطاننا يا الله انصروا على الطغاة المشركين
وأيدوا يا خالق بالفتح والنصر المبين

وسائر المعسكر جميع في حفظ رب العالمين
والحاضرين في دا المقام يكون لهم ربي نصير
صيحوا على ميمون أخى يحى ويزعق بالنفير
وبعد الفراغ من هذا الإنشاد تتجمع جيوش المسلمين ، ويحضر
الجاحد من قبل النصارى ويخبر المسلمين عن قيام الحرب ورغبة
الصليبيين فى الاستيلاء على مصر والإسكندرية . فيدور حديث
نثرى بين الحازق وبين شخص آخر يدعى الرخم . وفى هذا الحديث
ترى تصويرا فكها المتحاربين .

يقول الحازق : تعالى يا أبو الققط تلاته ما تقاتل

يقول الرخم : ما يكونوا ؟

يقول الحازق : عريان ، وجعان ، وخائف . عندكش يا أبو الققط

من دول ؟

يقول الرخم : سا كنين عندى وفى طبقة ، والطبقة هاوية .

يقول الحازق : أف يا أبو الققط أما أجيب لك جماعتى .

يقول الرخم : أصبر لما أجيب لك جماعتى .

يقول الحازق : جماعتك يحوا إيش يعملوا ؟

يقول الرخم : وأنت لآخر جماعتك يحوا إيش يعملوا ؟

يقول الحازق : أنا أقول لجماعتى يا مجاهدين يا مغزيين . اجتمعوا

فى طاعة رب العالمين ، دا يحى بسيفه ، ودا يحى برمحه ، ودا يحى بدرقته ،

و دا يحى بقوسه ، يوقعوا الضرب والطنع بالقبال والقتل فى المشركين .

يقول الرخم : وأنا أعيط على جماعتي . يا جمانين . يالهفانين .
 يعطشانين . عليكم بصمات صاحب الفرح عمل حلو كثير ، وعمل
 رز كثير ، وعمل لحم كثير ، دا يحيى بقصعته ، ودا يحيى بزلفته ودا
 بماجوره ، ودا بصحفته ، ويهجموا على الصمات .
 ثم يلتحم الجيشان وتدور الدائرة على الصليبيين فيظهر على
 المسرح شخص ، وينشد بليقا .

جيش اللثام قد انكسر وجيش الإسلام انتصر

بيت

الروس على أعلى الرماح والبعض موسوقين جراح
 والمسلمين زانوا السلاح وصيروا الكفار عبر

بيت

صغير وأمه مع أبوه وأخوته أثنين يسحبوه
 من تحت تحته يحملوه متقيدين يمشوا زمر

بيت

وانظر ترى كم قوم إيسار مستيسرين في انكسار
 داقوا العنا والاحتصار والهزم والضيق والضرر

بيت

وانظر بني الأصفر حقيق مجنذرين بين الفريق
 والدمع سال بل الطريق وحالهم حال واندثر

بيت

وانظر جيوش الكيتلان من القيود داقوا الهوان
وحينهم بالقرب حان وأرواحهم تذهب سقر

بيت

رودس أمرناهم جميع بإذن مولانا السميع
وانظر ترام ياشجيع نفر ومن خلفه نفر

بيت

وأهل قبرص دالائم من حربنا داقوا الحمام
وانتصرنا يا كرام على الذي بالدين كفر

بيت

وانظر لديره كبار دموعهم تجري غزار
وكل واحد في افتكار للخلق يشخص بالنظر

بيت

جنويه ما قاسوا قليل أضحى العزيز منهم ذليل
وفي الحديد قاموا العويل ودمعهم يحكي المطر

بيت

والفنش جتنا في القيود دولا ملاعين الجودود
لما تعدوا للأحدود صاروا حديث بين البشر

بيت

وانظر لاشبتار كان مسلسلين يمشوا عيان
وما لهم معهم بيان لو ينتظر من كان حضر

بيت

وانظر تجار أولاد ملوك لهم على السرقة سلوك
يا ماخذو جنح الجلوک من المراكب في البحر

بيت

معهم ترى ألكياس ذهب والعقل منهم قد ذهب
وحالهم صار حال عجب والحق للإسلام نصر

بيت

دولا جنوس لم يحصروا وكلما طال يقصروا
وعاينوهم وابصروا أقوام يحير فيها النظر

بيت

وامنداح نبى هادى حبيب مرسوم من المولى الرقيب
مختار شفيع طاهر حبيب سيد ربيعة مع مضر

بيت

خير الاخلايق والأنام والحق خصه بالسلام
منصور من المولى السلام وأعطاه عظام ينحصر

بيت

وألف دستور يا كرام أسمى سعود عمرى همام
وحاسدى عمره خمم ماله نظام مثلى درر

... ..

برلام ويواسف

لعل تاريخ القصص لم يحفظ لنا قصة تنقلت بين الشرق والغرب ، وخدمت أكثر من عقيدة ودين ، وترجمت إلى معظم اللغات قديمها وحديثها مثل هذه القصة التي تعرض لها الآن .
فنحن نقرأ في الفهرست لابن النديم الشيء الكثير عن كتب الهند وفارس ، وقد أفرد الأولى فصلا خاصا هو « أسماء كتب الهند في الخرافات والأسماء والأحاديث » ذكر منها كتاب « بوداسف وبلوهر » وفي مواضع أخرى حيث يتحدث ابن النديم عن أخبار بعض المؤلفين أمثال أبان اللاحق نجد ذكرنا لأسماء بعض هذه الكتب الهندية التي نقلت إلى الفهلوية ومنها إلى العربية فمن هو بوداسف هذا ؟ هو في الواقع اللقب الذي يعرف به نبي الهند (بودا) أعني (بوديستفا Bodhisattva) ولا أدل على صحة أن بوداسف هذا هو بودا من مراجعة المواضع الأخرى التي ذكره فيها ابن النديم فهو يتحدث عنه مثلاً في كلامه عن « مذاهب السمنية » (من الهندية سرامانا sramana) ويقول قرأت بخط رجل من أهل خراسان قد ألف أخبار خراسان وما آلت إليه في الحديث . وكان هذا الجزء يشبه الدستور . قال نبي السمنية بوداسف ، وعلى هذا المذهب كان أكثر أهل ما وراء النهر قبل الإسلام ، وفي القديم .

ومعنى السمنية منسوب إلى « سمنى » وهم أسخى أهل الأرض
والأديان وذلك أن نبيهم بوداسف أعلمهم أن أعظم الأمور التي
لا تحل ولا يسع الإنسان أن يعتقدوها ولا يفعلها قول « لا » في الأمور
كلها ، فهم على ذلك قولاً وفعلًا . وقول « لا » عندهم من فعل
الشیطان ومذهبهم دفع الشيطان . ويذكر صاحب الفهرست أيضا
في سياق « الكلام على البد » ما نصه : من غير الكتاب الذي
بخط الكندي اختلف الهند في ذلك فرعمت طائفة أنه صورة البارى
وقالت طائفة هذه صورة بوداسف الحكيم الذى أتاهم من عند الله :
فما ذكرت عن ابن النديم واعتمادا على مواضع أخرى كثيرة واردة
في الفهرست يتضح لنا أن هذه القصة الهندية الأصل والتي عالجتها
(بودا) ترجمت إلى الفهلوية وعن الأخيرة إلى العربية وأكثر من
مرة ، ويرجح أن الترجمة الفهلوية حدثت في القرن السادس الميلادى
وأيام خسرو كما أن أول ترجمة عربية كانت في النصف الثانى من
القرن الثامن الميلادى . ولم يقف أمر هذه القصة عند هذا الحد بل
نجدها في أوائل القرن التاسع تكتسب عناية العالم المسيحى فيقبل
عليها بعض العلماء وينقلونها من العربية إلى اليونانية تحت اسم
(بلام ويواسف) لكن رأى المترجم أن يتخذ من هذه القصة
أداة للدعاية إلى المسيحية والتبشير بالنسك فخرجت للعالم وهى قصة
أخرى غير تلك التى نعرفها فى الهندية أو الفهلوية أو العربية . وعن
اليونانية ترجمت فى القرن الثانى عشر إلى اللاتينية كما جاء فى القرن

الثالث عشر ابن حسداى ونقلها عن العربية إلى العبرية تحت اسم « ابن الملك والدرويش ». وفي العصور الأخيرة نجدها تنقل إلى مختلف اللغات الحديثة من غربية وشرقية ، والشئ الجدير بالملاحظة أن هذه القصة التي عرفها الغرب أصلا عن طريق العرب عادت في العصور الوسطى إلى العربية ثانية لكن في ثوبها اليونانى المسيحى لا الهندى الأصلى لذلك أصبحنا نجد في العربية نصين مختلفين لهذه القصة .

أما النص الذى سأنشره هنا فقد أثار اهتمام كثيرين من المستشرقين في القرن الماضى ولست أزعم أنه هو الذى أشار إليه ابن النديم وإن كنت أعلم أنه أقدم نص جاءنا في العربية . وقد حصلت عليه مكتبة المستشرقين الألمان في منتصف القرن التاسع عشر ومما يؤسف له حقا أن الصفحة الأولى لهذه المخطوطة قد فقدت كما ضاعت خاتمها أيضا لذلك لا نستطيع معرفة الاسم الذى اختاره المترجم قديما لهذه القصة وهذا ما دفعنى إلى إطلاق الاسم المتداول اليوم عليها أعنى (بلام ويواسف)

ومن حسن الحظ أنها بقيت في ثوبها العربى الفصيح الذى نقلت إليه من الفهلوية ولم تمتد إليها يد أديب من أدباء العامة كما حدث لكثير من قصصنا فهى والحالة هذه مثل واضح للقصة وما يطرأ عليها مع مر الزمن من تغيير وتبديل .

بسم الله الرحمن الرحيم

مختصر من كتاب أحد حكماء الهند الفاضلين ، وهو كتاب
بليغ الإشارات مستعذب العبارات حسن المعاني نفعا الله به آمين .
ذكر مصنفه أنه كان بأرض الهند ملك كبير ولشدة محبته في
الدنيا واشتغاله عن ذكر الآخرة وشفقه على ملكه أن لا يكون في
الدنيا من يطعن عليه ، أبعد أهل الدين ، وقرب أهل الأوثان .
فسأل يوما عن رجل من أهل مملكته كان يستعين برأيه فقيل له :
قد زهد في الدنيا ، وخرج عن أهله ولحق بالناسك : فعظم ذلك عليه
وأرسل في طلبه فلما أحضر إليه ورآه في حال أهل الناسك شتمه ،
وقال : بينما كنت عندي من كبراء أهل مملكتي أهنت نفسك
وفارقت أهلك وطلبت الباطل : فقال الناسك أيها الملك إنه وإن لم يكن لي
عليك حق فإن من الواجب أن تسمع قولي بغير غضب ثم تأمر بما
يبدو لك فإن الغضب عدو العقل يحول بين صاحبه وبين أن يسمع
ويقهرهم : فقال الملك : قل : قال الناسك : هل الذنب الذي تنكره على
هو راجع إلى نفسي أم إليك ؟ قال : إلى نفسك وإلى فليس كل من
أراد أن يهلك نفسه ينبغي لي أن أخلي بينه وبين ذلك ، فإني أعد
أهلا كه لنفسه كاهلا كه لغيره لأنني وليه ، والحاكم له وعليه فأنا
أحكم عليك لنفسك وأخذ لها منك إذ أفسدت نفسا من ريعتي وهي
نفسك مهما أدخلت على أهلك من الضيعة والغم . قال الناسك : إني
لأراك لا تأخذني إلا بحجة ، والحجة لا تثبت إلا عند قاض وأنت

وإن لم يخضرك الآن من الناس قاض فإن عندك قاضيين وأنا بأحدهما راض : قال : ومن هما : قال الناسك : أما الذى أراضى بقضائه فمقلتك وأما الذى أستمعنى منه فغضببك : قال الملك : قل ما بدالك ، واصدقنى بخبرك ومتى كان هذا رأيك ؟ ومن أعانك عليه ؟ : قال الناسك : أما خبرى فإنى كنت سمعت فى حدادة سنى كلمة وقعت فى نفسى فصارت كالخبة المزروعة فنبقت ولم تزل تنمو حتى صارت شجرتها إلى ما ترى وذلك أنى سمعت قائلاً يقول يحسب الجاهل الأمر الذى هو الشئ لا شئ ، والأمر الذى لا شئ لا شئ . وإن من لم يرفض الأمر الذى لا شئ لم ينل الأمر الذى هو الشئ ، ومن لم ينظر الأمر الذى هو الشئ لم تطب نفسه بترك الذى هو لا شئ . والشئ هو الآخرة والذى لا شئ هو الدنيا . فكان لهذه الكلمة عندي موقع لكن كانت الأهواء تغلب عليها وعلى الانتفاع بها ، والنظر فيها إلى أن ظهرت لى الدنيا التى كنت بجھلى أظن أنها شئ . أنها لا شئ من غير أن أسألها إذ أرتنى أن حياتها موت ، وغناها فقر وفرحها حزن ، وشبعها جوع وصحتها سقم ، وقوتها ضعف ، وعزها ذل ، ولذتها ألم . وكيف لا تكون حياتها موتاً ومصير الحى فيها إلى الموت ! وكيف لا يكون غناؤها فقرًا وليس يصيب أحد منها شيئاً إلا احتاج إلى شئ آخر يصلحه كما يحتاج صاحب الدابة إلى علفها ، وقيمتها ، ومربطها وآلاتها ، ثم يحتاج لصلاح كل شئ من ذلك إلى شئ آخر ! فمتى تنقضى فاقة من لا يصيب من أهل ولا مال ولا حاجة إلا دعاه ذلك إلى حاجات ، وكيف لا يكون

فرحها حزنا وهي مرصدة لكل من أصاب منها سرورا بأن تعقبه
حزنا . وليس يأمن صاحبها إذا رأى في أمر من الأمور مسرة أن
يرى في ذلك الأمر بعينه مضرة ، فإذا كان ولا بد من مفارقة الأهل
والولد والمال ، وكان ذراق ذلك اضطرابا بجهات شرا كثيرا ، فما
أحق هذه الأشياء المذكورة بأن يتركها العاقل اختيارا قبل وقوع
شيء من الجهات المذكورة التي هي أكثر وقوعا ولا يأسف عليها
إن كانت حصلت له ، وإلا فإن لم تكن حصلت له فلا يطلبها ولا
يؤثرها . وكيف لا يكون شبعها جوعا وهي تضطرم في الجسد فإن
لم يجد ماء يطفئها به أكلت جسده ، وإن شغلها عن أكل جسده
تغذيه من الطعام والشراب كان ذلك قوة على العودة بمثل ذلك
التضرم . وعادة الشبع زيادة في الجوع ، وكيف لا تكون صحتها سقما
وصحتها باعتدال أخلاطها المجمع ، وهذه الأخلاط متضادة بكيفياتها
وأقربها من الحياة الدم وأظهر ما يكون لموت الفجأة والطاعون
والذبح والخناق والأكلة والبرسام . وكيف لا يكون عزها ذلا
ولم تر فيها عز إلا انتهى إلى عزل ، وأي ذل أشد من العزل من
العز ! وكيف لا تكون لذتها ألما وإنما هي دفع ألم وتنقطع في أقصر
الأزمة وبعقبها ذلك الألم الذي دفعته بعينه وإذا اعتبرنا ذلك بأعمار
الملوك وأعقابهم وجدنا أيام عزهم قصيرة بالنسبة إلى أيام ذلهم وذل
أعقابهم . فلعمري إن أحق الناس بدم الدنيا من أعطى منها حظا
لأنه يتوقع منها في كل يوم أن تغدو على ماله وأهله وولده أو عزه أو

بدنه أو نفسه ، وكيف لا أذم الدنيا وهي تأخذ ما تعطي ، وتورث
التبعة ، وتسلب من تكسوه وتورثه الفضيحة ، وتضع من ترفع
وتورثه الحسرة ، وتقطع مواصلة عاشقها وتعقبه الندم ، وتغوى من
أطاعها وتعقبه الشقوة ، وتدعو بتلطفها إلى الوقوع في فخاخها وتورث
التعب والحيرة في الخلاص منها . فهي الصاحب الخؤون ، والطريق
المهلك ، والمركوب العثور ، والسفينة الخلقة ، والبيت كثير الأفاعي
والجنان الزائدة الوحوش . الملزومة التي لا تلزم أحدا ، والمحبوبة التي
لا تحب أحدا . اللاعبة بصاحبها بينما هي تطعمه إذ جعلته مأكولا ،
وبينما هي تستخدم له إذ جعلته خادما . تضحكه ثم تضحك منه ،
تشمته ثم تشمت به ، تبكيه ثم تبكي عليه . وبينما هي تبسط كفه
بالعطية إذ بسطتها بالمسألة والمسكنة . تعقد التاج على رأسه ثم تدفن
رأسه في التراب . تحلى الأيدي والأرجل بالذهب ثم تغلهم بالحديد
تجلس المرء على السرير اليوم وتجلسه في السجن غدا . تفرش له الديباج
بكثرة وتفرش له التراب عشية . تجمع له الأغاني ، والمضحكين ،
والمادحين ، ثم تجمع عليه النوائح ، والباكين ، والفادين . تحب
إلى أهله قربه ثم تحب لهم بعده . تطيب ريحه اليوم وتنقته غدا . تملأ
نفسه من آمالها وكفه من جمعها في الصباح ، وتخلي نفسه وكفه في
المساء . ترضى بكل من كل بدلا وتسد بالارذال مكان الأفاضل . تنقل
قومها من الجذب إلى الخصب ، ومن الراحة إلى التعب ، ومن الجوع إلى
الشبع حتى إذا عودتهم ذلك انقلبت عليهم فسلبتهم الخصب ، وحالت

بينهم وبين لين العيش ، وقد نزعتم منهم القوة على خشونة ، فعادوا
إلى أتعب التعب ، فأما قولك أيها الملك في إضاعتي لأهلي ، وتركى لهم
فانى لم أضيعهم ولم أتركهم بل وصلتهم وانقطعت إليهم لأنى كنت
أنظر بعين مستحورة لا أعرف بها الأهل من الغرباء ولا الأعداء من
الأحباء . فلما صارت لى عين بصيرة نظرت فإذا الذين أحسبهم أهلا
وأصحابا وإخوانا إنما هم سباع عادية ليس لها هم إلا أن تأكلنى أو
تأكل لى ، واختلافهم على قدر تفاضلهم فى القوة ، فمنهم كالأسد فى
البطش ، ومنهم كالذئب فى الخطف ، ومنهم كالكلب فى الهرير تارة
والبصبصة تارة ومنهم كالثعلب فى الخيل والسرقة ، والقصد واحد
والطرق مختلفة . ولو نظرت أيها الملك فى أمرى لرأيت أن أهلك
وأهل طاعتك أشد عليك من الغرباء والبعداء ، وأما أنا الآن فإن لى
أهلا وإخوانا وأولياء يحبونى وأحبهم لما لا يفقد ، فلا تنقطع المحبة
بيننا ، ويعملون لى وأعمل لهم بأجرة لا تنفد فلا يزال العمل قائما
وكلنا نطلب ما يمكن أن نأخذه جميعا ، وليس يمتنع أن يحوز كل
واحد منا فى حال ما يحوزه الآخر وعلى نحو ما يحوزه بالطريق التى
يحوزه بها ، فلا منافسة بيننا ولا تحاسد . وهؤلاء هم أهل الدين الذين
واصلتهم والتمست السلامة لنفسى مثلهم ، والذين رفضتهم وقاطعتهم
فأولئك هم أهل الدنيا التى هى لاشئ ، وقد عرفت نسبتها وفعالها فإن
كنت تريد أن أصف لك الشئ فاستعد لسماعه . فقال الملك للحكيم
لم تبصر شيئا . ولم تظفر إلا بالشقاء العاجل والأمل الباطل والحرمان

النازل . فأخرج من مملكتي فإنك فاسد .

وولد للملك في تلك الأيام غلام فابتهج به كثيرا لأنه كان مؤيسا من أن يكون له ولد ذكر ، فجمع المنجمين والعلماء لعمل مولد له فذكروا أنهم وجدوا أن هذا المولود سيبلغ من علو المرتبة ما لم يبلغه ملك من ملوك الأرض ، فقال عالم منهم : ما أظن الشرف الذي يبلغه هذا الغلام من جنس الشرف الذي يحصل في الدنيا فأظنه سيكون أماما في النسك ، وذا درجة عالية في الدين من درجات الآخرة : قال فتنفص سرور الملك بالغلام ثم أمر فأخليت له مدينة وتخير لخدمته وتربيته الثقات الصونة ، وتقدم لهم وأوصاهم أن لا يذكروا فيما بينهم موتا ولا آخرة ، ولا ديننا ولا نسكا ، ولا زوالا ولا معادا . وإن نظروا من عرض له منهم شكوى أو علة ، فيعجلوا بإخراجه من بينهم حتى ينقطع من أفواههم ذكر الأشياء التي نهاهم عن ذكرها . فإذا بلغ الغلام أن يفهم الكلام لم يعرضوا على السنتهم بشيء من ذلك . قال : وكان للملك وزير قد كفاه أمره وكان أحياء الملك يحسدونه ، فخرج للصيد فوجد زمينا فسأله فأخبره أن وحشا أصابه . وقال للوزير : اضممني اليك لتجد مني منفعة فأمر بحمله إلى منزله ، وكان الوزير مؤمنا بدينه إيمانه بالحكمة ثم وشى الحسدة بالوزير عند الملك أنه يطمع في الملك ، وقالوا اختبر هذا بأن تذكر له أنك تريد النسك وترك الملك لترى ترغيبه لك في ذلك ، وهذا فعلوه لأنهم

كانوا يعلمون رأى الوزير في النسك وترك الدنيا . قال : فلما دخل
الوزير على الملك فقال : أيها الوزير قد عرفت حرصى على الدنيا منذ
كنت رجلا ، وقد تدبرت فيما مضى فلم أجد فى يدي منه شيئا والذي
بقى هو مثل الذى مضى ، وقد يخرج من يدي فأنا أريد أن أعمل
للآخرة ما كنت أعمل للدنيا ولا أجد لذلك حيلة إلا أن أترك هذا
الملك وأهله وألحق بالنسك ، فما رأيك ؟ قال الوزير أيها الملك إن
الباقى وإن كان مرجوا غير موجود ، فهو أهل أن يطلب ، وإن
الفانى وإن كان موجودا لأهل أن يرفض ، فظهر فى وجهه ثقل
القول عليه . فعاد الوزير إلى منزله وهو خائف لا يعلم ما يعمل
فاجتمع بالزمن وعرفه ما جرى فقال الزمن أظن أن الملك قد ظن
أن قصدك أن تخلفه فى مملكته فإذا أصبحت فاطرح حليتك هذه
والبس لباس النسك واحلق رأسك وامض ظاهرا إلى دار الملك فإن
الناس سيراتعون لذلك ويوصلون خبر حالك إلى الملك فإنه يستدعيك
ويسألك عن صنعك فقل هو ما دعوتنى إليه فإن من أشار على صاحبه
ومالسه بشيء فهو حقيق أن لا يتخلف عن مشاركته فيه فانهض
بنا فإن ما دعوتنى إليه أراه هو الأرشد الأفضل مما نحن فيه . قال
ففعل الوزير كما أمره الزمن ، فتحلل ما كان فى نفس الملك عليه من
الغضب . قال ثم إن الملك غاظه موضع النسك ومنزلتهم فى قلوب
الناس فأمر بنفيهم من جميع بلاده وتوعدهم بالقتل إن لم يفعلوا
فأخذوا فى الهرب والاستخفاء . قال وخرج الملك يتصيد فرأى

شخصين من بعد فاستحضرها فإذا هما ناسكان فقال لهما : لِمَ أخرتما الخروج ؟ قالا : نحن ضعفاء لا دابة لنا ولا زاد . فقال : إن من خاف من الموت ليسرع بغير زاد : قالا إنا لا نخاف من الموت لسكننا نفتطره ونسربه . فأما ما يسر به أهل الأرض فقد خرجنا منه ولسنا نعود إليه . قال : أفليس هروبكما فزعا من الموت ؟ فقالا : لا إنما هربنا كراهية أن نعينك على أنفسنا . فأمر الملك بهما فأحرقا ، ونادى بإحراق جميع من وجد من النساك في مملكته رضى الله عنهما .

قال ونبت ابن الملك أحسن النبات في جسمه ، وأفلح في أدبه وبحج في علمه وفطن بحصرهم إياه عن الخروج والنظر والاستماع . وقال لعلهم أعلم بما يصلحني فلما زاد بالسن والتجربة عقلا قال ما أرى لهم على " فضلا ولا ينبغي أن أقلدكم أمرى وأدعى التخيير لنفسي بل ينبغي أن أكشف رأيهم وأشار بهم فيه . وأراد أن يسأل أباه عن حصرهم إياه ثم قال : ما هذا الأمر إلا من قبله فما يطلعني عليه لكن ينبغي أن أعرف ذلك مما تستميله الرغبة ويرهبه الوعيد . فقال إلى واحد كان يأنس إليه فزاد في الاستيناس له والتخصص به ، وقال له : إن الملك يتردد إلى عندي كما تراه وإن الملك صاير إلى وإنك ستكون أسعد حالا إن أطعته وأسوأ حالا إن خالفتني إما عاجلا وإما آجلا . فعرف منه الصدق ووثق منه بالوفاء فأفضى الكلام بينهما إلى

أن عرفه بجميع ما كان فشكره . فلما كان وقت دخول أبيه عليه قال
له يا أبتى قد عرفت اختلاف حالى وضيق نفسى بهذا الحصر وأنتك
لما كنت على هذا المثال لم تكن على هذا الحال ولا دمت عليه إذ
التغير على ما تراه مستمرا . فعلم أبوه أن حبسه لا يزيده إلا إغراء
قال : يا بني أردت أن أنحى عنك الأذى فلا تسمع ولا ترى إلا
ما يسرك . ثم أمر الملك أصحابه أن يركبوا فى أحسن زى وينحوا
عن طريقه كل منظر سوء وأن يجمعوا بين يديه الأغاني الحسان فلما
تردد فى ركوبه وكثر منه ذلك اشتدت الكلفة على الناس فى تنحية
المرضى والزمنى من طريقه فغفلوا يوما عن رجائين من المتصدقين
أحدهما مورم مرهل مصفر بشع المنظر شديد الأنين والآخر أعمى
ينهى قائده لينحيه بسرعة من طريقه فلما رآهما ابن الملك اقشعر منهما
فسأل هل هذا ممكن فى أحد من الناس غير هذين ؟ فقيل له : نعم .
فمضى محزونا باغضا للعيش مستخفا بالملك ثم رأى بعد ذلك شيخا
كبيرا قد أحنأه الكبر ، وأبيض شعره ، واسود لونه ، وضعفت
قواه . فقال : ما هذا ؟ فقيل له : الهرم . فقال : وفى كم يبلغه
المرء ؟ فقيل له : فى مائة سنة ونحوها . فقال : وما وراء ذلك ؟ قيل
له : الموت . فقال ما أسرع اليوم فى الشهر ، والشهر فى السنة
والسنة فى العمر ؟ إن الأمر لغير ما نشغل به . وانصرف وهو يكرر
هذا القول فانصرفت نفسه عن الدنيا وشهواتها واجتمع بذلك الرجل
الذى كان يأنس إليه ويختص به ، وقال له : هل تعرف أحدا من

الناس شأنه غير شأننا ؟ فقال له : نعم ! النساك الذين يرفضون الدنيا ويطلبون الآخرة ولهم علم وكلام غير أن الناس عادوهم ونفاهم الملك أبوك وأحرقهم بالنار . قال فصار ابن الملك كطالب ضالة قال واشتهر خبره في الآفاق بالجمال والكمال ، والفهم والأدب والعلم والزهد في الدنيا ، فبلغ خبره إلى ناسك حكيم بجزيرة سرنديب يقال له (بلوهر) فقال : لأخرجن هذا الحى من بين أولئك الموتى ثم سار إليه فلما وصل إلى المدينة التى فيها ابن الملك طرح شكل النساك ولبس لباس التجار وتردد إلى باب ابن الملك إلى أن عرف الحجاب وتلطف إلى أن اجتمع بذلك الرجل الخاص بابن الملك فى خلوة فقال له : إني رجل غريب من سرنديب قدمت بسلمة غريبة شريفة جدا ومنفعتها أنها تبرى المرضي ، وتبصر الأعمى ، وتقوى الضعفاء . ولم أجد أحدا أحق بها من ابن الملك لجماله وكماله . فقال له : إنك تصف أمرا عجيبا ، وعقلك ما أرى به بأسا ، وكلامك حسن لكن لا ينبغي لى أن أذكر خبرك حتى أرى سلمتك . فقال : أنا مع تجارتي طيب وأرى بصرك ضعيفا وسلمتي لها إشراق يذهب بالأبصار الضعيفة ، وابن الملك حديث السن قوى البصر أرى أنه أهل لذلك . فدخل الحاجب وأخبر ابن الملك به فحدثه نفسه أنه قد أصاب حاجته من علم النساك وأمره بإدخاله عليه سرا ، فحمل الحكيم (بلوهر) معه سبطا فيه كتب وقال بضاعتي فى هذا السبط قال فلما دخل (بلوهر) وخرج ذلك الحاجب تلقاه ابن الملك أحسن ملتقى ،

وأكرمه وعظمه . فقال له (بلوهر) يا بن الملك أراك قد زدتنى من الكرامة على أهل مملكته . قال لعظيم مارجوته عندك . فقال مثلك معي يا بن الملك مثل الملك المعظم الرجلين المسكينين لأجل دينه .

قال ابن الملك : وكيف ذلك ؟ قال الناسك ذكروا أنه كان ملك يحب الخير ويقتبسه من أهل الصلاح والفضل ، فبينما هو يسير يوما مع أصحابه إذ مر برجلين يمشيان حافيين ولبسهما الخلقان وعليهما أثر البر والفضل . فلما رأهما ترجل عن مركوبه وعانقهما وأكرمهما فعر ذلك على أصحابه ، وكان الملك أخ جاهل لا يعرف مقدار أهل النسك والعبادة إلا أنه كان دون أخيه ، وليس له أمر . فذهب أصحاب الملك الفاضل إليه وقالوا إن الملك قد أزرى بنفسه وفضح أهل مملكته إذ ترجل لإنسانين ذميمين فعاتبه لئلا يعود لمثله ، ففعل . فلما قضى كلامه أجابه بعض الجواب ، وانصرف وهو لا يدري أساخط أم راض ، فلما كان بعض أيام أمر الملك الفاضل منادى الموت أن ينادى بباب دار أخيه وأن يضرب بطبل الموت على باب داره ، وكانت تلك سنتهم فيمن أرادوا قتله . فقامت المناحات في بيت أخ الملك فلبس الأكفان ومضى باكيا إلى باب أخيه الملك الفاضل ، فلما دخل عليه وقع إلى الأرض ونادى بالويل ، ورفع يديه بالتضرع . فقال له الملك : مما جزعك أيها السفيفه ؟ قال : أنلومنى على جزعى وأنت تنادى بالموت ؟ قال : أفجزعت من مناد ينادى بأمرى وأنا أخوك ، وقد تعلم أن ليس

لك إلى ذنب يوجب القتل فكيف تلومني على جزعي من منادى ربي
حين نظرته ووقعت إلى الأرض جزعا مما تذكرت به الموت الذي قد
نوديت به منذ ولدت فاذهب فانما استزلك ووزرائي وسيظهر خطاهم .

قال الناسك : ثم أمر الملك فصنعت له أربعة ثوابيت خشب وطلا
اثنين منها بماء الذهب واثنين بالقار ، ثم ملأ تابوتي القار ذهباً وجوهرات
وملأ تابوتي الذهب جيفة ميتة ثم جمع وزراءه وعرض عليهم
الثوابيت وأمرهم بتقويمها فقالوا : أما في ظاهر رأينا فلا نعلم لتابوتي
الذهب لفضلهما ، ولا نعلم لتابوتي القار لخساستهما فأمر بفتح تابوتي
القار فاستنار البيت بالجواهر ، فقال : هذا مثل الرجلين اللذين أزدريتم
بهما لظاهر لبسهما الدني وتكشف هياكلهما وهما مملوءان برا وحكمة
وجميع الفضائل التي هي أنفس من هذه الفضائل قدرا . ثم أمر بفتح
تابوتي الذهب ففاحت منهما الروائح المنتنة وانكشف الأشباح
الموحشة المغبرة البشعة الكريهة فاستبشعوا المنظر ونادوا من قبح
الرائحة . فقال : هذا مثل المتزينين بظاهر الحلية المفتخرين بهذه
الأجسام الفانية المستحيلة وباطنهم مملوء جهلا وشرًا وجميع الرذائل
التي هي أبشع وأقذر من هذه الجيف . فقالوا : قد تيقظنا واتعظنا
فهذا مثلك يا ابن الملك فيما لقيتني به من إكرامك ، فانتصب ابن الملك
قائماً وقال : الآن قد أيقنت بوجودان مطلوبين فزدني من ذلك .

قال الناسك : إن الزارع خرج ببذره الطيب ليبيذره فلما ملا منه كفه وبذره ، فوقع بعضه على حافة الطريق فلم يلبث أن خطفه الطير ، ووقع بعضه على صفا قد أصابه ندى وطين فنبت فلما صارت عروقه إلى ببس الصفامات ، ووقع بعضه في أرض ذات شوك فلما كاد أن يثمر خنقه الشوك فأمانه ، ووقع أقله في أرض طيبة منقاة فسلم وزكا وطاب . فالزارع حامل السكامة والبذر الطيب صواب الكلام ، وما وقع إلى حافة الطريق فخطفه الطير فذلك ما لم يجاوز السمع حتى صرعه صفحا ، وما وقع على الصفائم ببس حين بلغت عروقه الصفاء فذلك ما استحلله صاحبه لما قرع سمعه ولم يعقد عليه نيته . وما نبت وكاد يثمر ثم أهلكه الشوك فهو ما وعاه صاحبه حتى إذا كان عند العمل الذي هو ثمرته خنقه الشهوات والهموم فأهلكته ، وأما الذي سلم وزكا وطاب فما اقتبله السمع والبصر ، وعاه الفهم والحفظ ، وأمضاه عزم الفكر والرأى ، ولم يشاركه في ذلك مشارك . قال ابن الملك إنى أرجو أن يكون ما تبذره عندي مما يسلم ويزكى ويطيب فاضرب لى مثل الدنيا وغرور أهلها وما هم عليه .

قال الناسك زعموا أن رجلا خرج في مفازة فبينما هو يسمى إذ حمل عليه فيل مغتلم فهرب وتبعه الفيل فوجد بئرا فتدلى فيها وتعلق بغصنين نابقين على حافتها وثبت رجله على شيء في جانب البئر . فلما تبين الغصنين رأى عندهما جردين أسود وأبيض يقرضانهما دائما ،

ونظر إلى مائتة عليه قدميه فإذا هو بأربع أفاعى ، ونظر إلى قمر
البئر فإذا هو بتنين فاغرا فاه يريد التقامه ثم رفع رأسه إلى الغصنين
فإذا فى أعلاهما شئ من عسل النحل فتطعم من ذلك العسل فألهما
ما وجده من حلاوة العسل عن الاهتمام بالغصنين اللذين هو متعلق بهما
وقد رأى إسراع الجرذين فى قطعهما وبالحيات الأربع التى اعتمدت
رجلاه عليهن ولا يدرى متى تهتاج به واحدة منهن ، وبالتنين الفاغر
فاه الذى لا يدرى كيف مصيره عند وقوعه فى لهوته ، وبالنحل
والزناير التى تلدغه عند أكله من ذلك العسل ؛ فالبئر هى الدنيا
المملوءة بلايا ، والغصنان هما العمر ، والجرذان هما الليل والنهار ،
وإسراعهما فى قطع الغصنين هو إسراع الأيام والليالى فى قطع العمر ،
والأفاعى هى الاخلاط الأربعة التى متى هاج أحدها قتل ، والتنين
هو الموت الراسد ، والنحل والزناير هى المصائب والبلايا ، والعسل
هو غرور الناس فى الدنيا بقليل ما ينالونه فيها من لذة العيش المزوج
بالحن ، والمشقات شبه العسل المزوج بلسع الزناير والنحل . قال
ابن الملك : المثل عجيب والشبيه حق ، فزدنى مثلاً للدنيا مع صاحبها
المغرور فيها بما لا ينفعه ، المهاون بما يعود عليه من النفع .

قال الفاسك ذكروا أن رجلاً كان له ثلاثة قرناء فأما أحدهم فإنه
كان يؤثره ويعززه بنفسه فى الذب عنه ، وأما الثانى فدون الأول
إلا أنه كان يحبه ولا يغفل عنه ، وأما الثالث فمحقوق معزول عنه

لا يشتغل به إلا قليلا ، فنزلت بالرجل نازلة احتاج فيها إلى قرنائه
وأنته رسل الملك ليذهبوا به ، فأتى إلى قرينه الأول وقال له : قد
علمت إيثاري إياك وبذلي نفسي لأجلك وهذا يوم حاجتي فماذا لي
عندك ؟ فقال له : إن لي أصحابا يشغلونني عنك وهم اليوم أولى بي منك
غير أنني كاسيك ثوبين لا تنتفع بهما . قال ثم أتى إلى صاحبه الثاني
فقال له : كنت أسد حاجتك وأسعى في مرضاتك وقد احتجت إليك
فماذا لي عندك ؟ فقال له : إن أمر نفسي يشغلني عنك اليوم وقد انقطع
ما بيننا ، وطريقك غير طريقي غير أنني أشيعك خطوات يسيرة
وانصرف إلى ما هو أغنى لي منك . فالتفت إلى قرينه الثالث فقال
له : إني يا أخي لمستحي منك لكن الحاجة قد اضطررتني إليك فماذا لي
عندك ؟ قال : عندي المحافظة عليك وال لزوم لك وقلة الغفلة عنك وأنا
صاحبك الذي لا يخذلك ولا يسلمك فلا يهمنك قلة ما أسلفت عندي
فإني كنت أحفظ ذلك وأوفره عليك ثم أرضى لك به ، وما ادخرت
عندي من مالك القليل فلك أضعاف ما وضعت عندي ، وأنا أرجو
أن يكون في ذلك رضى الملك عليك . فقال الرجل : ما أدري على أي
الأميرين أتحمس على إدنائى قرين السوء أم على إقصائى قرين الصدق !
فالقرين الأول المال والثاني الأهل والثالث العمل الصالح . قال ابن
الملك : هذا هو الحق فزدني منه .

قال الناسك زعموا أن أهل مدينة كانوا يملكون عليهم الرجل

الغريب منهم الجاهل بأمرهم ، وبعد سنة يخرجونه عريانا فيصير
 ما مضى من أمور ملكه وبالا عليه ، وواحد منهم لما رأى غربته من
 أهل المدينة لم يستأنس إليهم وطلب أن يجد رجلا من أهل أرضه أو
 من يخبره بأمورهم وعوائدهم ؛ فلم يكل متطلبا ذلك حتى وجد من أفضى
 إليه سرهم وأشار عليه أن يقدم مما في يديه مهما استطاع حتى إذا
 خرج وجده ، ففعل ذلك فكانت العاقبة إلى سلامة . فأنت يا ابن الملك
 بمنزلة ذلك الرجل الغريب الذي لم يستأنس بالغريب منه ، وأنا الرجل
 الذي طلبت وعندى لك الدلالة والمعونة ، قال ابن الملك إني في الدنيا
 زاهد فاخبرني عن أمر الآخرة . قال الناسك : إن الزهد في الدنيا مفتاح
 الرغبة في الآخرة ، ومن رغب في الآخرة طلبها ، ومن طلبها أصاب بابها ،
 ومن أصاب بابها دخل ملكوتها ، ومن دخل ملكوتها فاز بخيراتها .
 وكيف لا تزهد في الدنيا وأنت ترى أمورها صائرة إلى هذا الجسد
 الذي لا امتناع فيه فالحر يذيبه ، والبرد يجمده ، والماء يفرقه ، والنار
 تحرقه ، والهوام تفسخه ، والوحش يفتسه ، والحديد يقطعه ،
 ومصادمة الصلب من الأجسام تكسره ، والأمراض والأوجاع
 معجونة فيه ، ولا طمع في دوام صحته وسلامته ، وهو مع ذلك مقارن
 الحر والبرد والمرض والخوف والجوع والعطش والموت . قال ابن الملك :
 هل الذين كان أبي قد نفاهم وأحرقهم هم أصحابك ؟ قال : نعم . قال : إنه
 بلغني أن الناس قد اجتمعوا عليهم بالعداوة وسوء الثناء . قال : أما
 العداوة فنعم ، وأما سوء الثناء فما عسى أن يقال فيمن يصدق

ولا يكذب ، ويعلم ولا يجهل ، ويكتفى بأقل الأشياء ويتجرد من ماله وأهله فلا يؤذى نفسه ولا الناس ولا يخافونه على أنفسهم ولا على أهلهم ولا مالهم . قال : فكيف اتفق الناس على عداوتهم وهم فيما بينهم مختلفون ؟ قال : كما اجتمعت كلاب على جيف تنهشها وبعضها ينهش بعضها ويهر عليه ، وهي مختلفة الأشخاص والألوان وبينما هي تقتتل على الجيفة إذ سر بهن رجل فترك بعضهن بعضا وطلبن الرجل جميعا متعاونات عليه ، وليس له في جيفتهن إرادة . لكن استوحش منه لقربه منهن واستأنس بعضهن ببعض . فالجيفة هي متاع الدنيا وأصناف الكلاب التي تقتتل عليها هي أصناف الناس الذين لا هم لهم إلا الدنيا ، والرجل الذي اجتمعت عليه الكلاب ولا حاجة له في الجيفة هو الناسك الذي لا ينافر في الدنيا أحدا ولا يمنع ذلك الناس لقربه منهم ، وأية حجة أبلغ من تعاون المختلفين على عداوة من لا حجة عليه عند العارفين ! قال ابن الملك : اعمد لحاجتك وداوئ عداواتك . قال الناسك : إن الطيب الحاذق إذا رأى جسدا قد انهكتة الشهوات والاخلاط الفاسدة وأراد أن يقويه ويسمنه لم ييده بالطعام الذي منه يكون اللحم والقوة لعلمه بأن إدخال الطعام القوى على الاخلاط الفاسدة وبال على الجسد لكنه يداويه بما ينقص أخلاطه الفاسدة وينقى عروقه ، وبعد ذلك يغذيه بما يصلحه من الطعام والشراب وحينئذ يقوى على حمل الثقل . فقال ابن الملك : أفهذا الذي تدعوني إليه شيء ، تطفر به الناس بعقولهم حتى اختاروه على

ما سواه ؟ فقال الناسك : إن هذا الأمر أعظم من أن يكون من أمر
أهل الأرض أو برأيهم يدبرونه ، ولو كان من رأى أهل الدنيا لدعى
إلى عملها وزينتها من أكلها وشربها ولباسها واجتماعها وعمارتها
ولهوها وشهواتها لكنه أمر غريب فيها ناقض عليها . قال : فهل أحد
يدعو إلى هذا غيركم ؟ قال : نعم أهل الأديان من سائر الأمم . قال
ابن الملك : فما جعلكم بهذا الأمر أولى من غيركم ؟ قال : أصل دعوة
الحق واحدة لكن يفرق بيننا وبين غيرنا أن هذه الدعوة لم تزل تأتى
وتظهر فى الأرض مع أنبياء الله ورسله فى القرون الماضية على السنة
متفرقة . ولكل دعوة هدى وأمر صحيح فيحولون الأمم عن جهته
ويتركون قصد سبيله ويبقون متعلقين باسمه بدعوى بعمرته فهذا
الذى يفرق بيننا وبينهم ولسنا نخالف أحدا فى شيء إلا ولنا عليه
الحجة من بقية ما فى يديه من المكتب وما يجرى على لسانه من
الصفة ، وسيرتنا تشهد لنا بموافقة الحق وسيرتهم تشهد عليهم بالمخالفة .
قال : فما بال الأنبياء والرسل يأتون ثم ينقطعون حتى تدرس آثارهم ،
وتجهل علومهم ؟ قال : ألم تر صاحب البستان كيف ينصب فيه ضروب
الغروس ثم يسيجه شتوبته كلها ولا يدخله تلك المدة إلا قليلا فإذا
جاء زمن الربيع حينئذ يدخله ويقصد الناحية التى فيها حاجته ،
وكذلك الأنبياء والرسل إنما تجيء للبغية المأمورين بها من عند الله
عز وجل ولكل زمان بغية فالزهر فى زمان والثمر فى زمان آخر . قال
فيقصدون أهل بغيتهم فقط أم يعمون بدعوتهم من يجيبهم ومن

لا يجيبهم ، كأنهم لا يعرفون أهل إجابتهم وأهل طاعتهم وولايتهم .
قال الناسك : اسمع لمثل أضربه لك .

يقال إن بيمض سواحل البحر طائراً يبيض بيضا كثيراً ويأتي
زمان يتعذر عليه فيه سكن ذلك الساحل فلم يجد بدا من انتجاع
أرض أخرى حتى ينقضى ذلك الزمان فيأخذ بيمضه يفرقه في أعشاش
الطيور وأوكارها بيضة بيضة خلال بيض كل صنف من الطير ،
فيحضن الطيور بيمضه مع بيمضها وتخرج فراخه مع فراخها حتى إذا
كان زمن عودته مر على تلك الأوكار والأعشاش بالليل فيصوت
فيسمع فراخه وغيره صوته . فأما فراخه فتجتمع إليه إذا سمعت
صوته ، وأما فراخ سائر الطيور فلا تجيبه ، وكذلك الأنبياء والرسل
إنما يجيب دعوتهم العامة من كان منهم . قال فإذا زعمت أن كلام
الرسل ليس هو مثل كلام الناس أفهو كلام الله وملائكته أم غيره ؟
قال ألم تر الناس لما أرادوا أن يفهموا بعض الدواب والطيور ما يريدون
من تقدمها وتأخرها وإقبالها وإدبارها لم يجدوا الدواب والطيور
تحتمل كلامهم على هيئته فوضعوا لها ما تطيق حمله من الزجر
والإشارات ما بلغوا به حاجتهم منها ! وكذلك لما كان الناس
يعجزون عن حمل كلام الله وملائكته كهيئته على كماله وصفته فصار
ما راجعون به من الأصوات التي بها يسمعون الأصوات من كلام
الحكمة بالأسنة للحمية كصوت الصغير والزجر الذي احتملته

الدواب من الناس ، وكذلك روح الحكمة مخبوء في تلك الأصوات .
وكما أن الكلام إذا كان فيه حكمة الله يشرف اشرفها كذلك
الأجساد تشرف بالأرواح وكما أن الأجساد إذا خلت من الأرواح
لا نفع بها كذلك الكلام إذا خلا من الحكمة التي هي بمنزلة
الأرواح لا ينتفع به . قال فما بال هذه الحكمة التي وصفت من قوتها
وفضلها ما وصفت لا ينتفع بها الناس جميعا !

قال الناسك إن نور الحكمة كشمسين يطلعان جميعا على من
واجه نورهما من جميع الخلق من أعمى وبصير ، فالشمس الظاهرة
إذا طلعت على الأبصار الظاهرة فرقت الناس على ثلاث منازل : فمنهم
الصحيح البصر الذي ينفعه الضوء ويقوى على النظر فيه ، ومنهم
الأعمى الغريب من الضوء الذي لا يجدى عليه طلوع الشمس
شيئا ، ومنهم المريض البصر الذي لا يعد في العميان ولا الأصحاء
الأبصار ، وهذا ينتفع بالضوء بقدر إبصاره ويستمضر بالضوء بقدر
ضعف عينيه . وكذلك شمس الحكمة التي هي شمس القلوب إذا
أشرقت على القلوب فرقت بين أهلها على ثلاث منازل : منزلة أهل
البصيرة الذين يفعلون بالحكمة ويكرمون أهلها بإيثارها واعتقادها
والعمل بمقتضاها ويجعلون أيامهم في علم ما لم يعلموا منها وعمل
ما يعلموه منها . ومنزلة أهل العمى الذين نسبة قلوبهم إلى الحكمة
شبيهة العين العمياء إلى الشمس ، ومنزلة أهل مرض القلوب الذين

يقصر علمهم ويضعف عملهم ، ويجتمع فيه الجيد والردى ، والحق والباطل ، والفرق بين هاتين الشمسين أن الباطنة أكثر من هي طالعة بحللهما عميان عنها ، وفي كل منزلة من منازل البصر الباطن من الاختلاف ما بين حبات اللؤلؤ فهي وإن جمعها اسم واحد فإن بينها تفاوت كثير . قال ابن الملك : فهل لأهل التقصير نجاة ؟ قال : إن في التخلص من الجهالة والضلالة عتق ، وفي التعلق بعصمة الحكمة نجاة ، والجزاء غير ساقط منه شيء . وإن قل . قال : ترى يسمع أبي من هذا الكلام شيئاً ؟ قال : ما أظنه ينصت له . قال : وكيف ترك الحكماء ذلك ولم يكلموه في ذلك الأمر العظيم وينصحوه ؟ قال : لعلمهم بموضع كلامهم حتى إن ربما كان بعض الحكماء يعاشر الرجل الجاهل طول عمره وهو يرى منه المودة ولا يفرق بينهما إلا الاعتقاد وهو مع ذلك متوجع له ولا يرى أن يفضي إليه بأسرار الحكمة إن لم يره أهلاً كما أصاب الملك المغتبط مع وزيره الحكيم .

...

إنه بلغنا عن ملك كان مصلحاً ، وكان له وزير يعينه على الصلاح ، وكان الوزير قد سمع كلام الحكمة وفهمه وأجابه وانقطع إلى أهله ، وكان الملك لا يكتبه شيئاً ، وكذلك الوزير لم يكن يكتبه شيئاً إلا أمر الدين والحكمة . وتعاشرا كذلك دهراً طويلاً والوزير كلما رأى الملك يسجد لأصنامهم ويهدى لها ويسير بسيرة ضلالتها يهتم ويغتم ويشاور أصحابه في كلامه في ذلك ، فيقولون له أنت أخبر بصاحبك فإن رأيت موصفاً للكلام فكلمه وإلا فلايك أن تبعثه على

الدين وأهله ، فإن السلطان يغتر به قال وإن الملك قال للوزير في بعض الليالى بعد هدوء الناس ، وكان قد صار في تلك الأيام مطر شديد ، هل لك في أن نسير في المدينة فننظر في أحوال الناس ، وآثار الأمطار التى أصابتنا في هذه الأيام ؟ فقال : نعم إن أحببت . فطافا في نواحي المدينة فمرا في بعض طريقهم على مزبلة لأهل المدينة قد صارت تلا كبيرا ، فنظر الملك ضوء نار يبدو من جانبها . فقال للوزير : انزل بنا نمشى حتى ننظر إلى هذه النار من قرب ونعلم علمها . فلما انتهيا إليها وجدا فيها ثقباً شبيهاً بالغار وقد ثقبه مسكين من المتصدقين فآخذ مسكناً له ولزوجته ، وسمما صوت غناء فنظرا من حيث لا يبصرهما من في الغار فإذا هما برجل مشوه الخلقة متكئاً على ما قد هبأه له من الزبالة ، وعليه ثياب من خرق المزابل وبين يديه كسر خزف من الرمية على تلك المزبلة فيه شراب ويده عظم من عظام تلك الموتى الملقاة ، وقد شد عليه جلداً من تلك الجلود الميتة شبه الطنبور ، وامرأته قائمة بين يديه وهي في خلقة ولباسه تسقيه ، وإذا دعت دعت سيد الرجال ، وإذا دعاها دعاها سيدة النساء وبينهما من السرور والضحك ، والطرب والتعاشق ما لا يوصف . فتعجب الملك من حالهما وما هما فيه من اللذة ، وانصرفا وهو لا ينقضي تعجبه من ذلك مما رآهما ، ثم قال لوزيره : ما أعلم أنه أصابنا من السرور واللذة مثلاً رأينا عند هذين المسكينين وأظنهما يفعلان هكذا كل ليلة فاعتقم الوزير الكلام من الملك ، فقال : أيها الملك إني أخاف أن

نكون من الغرور مثلما هم فيه . قال : وكيف ذلك ؟ قال : أن يكون ملك عند من يعرف الملكوت الدائم مثل هذه المنزلة في أعيننا ، وتكون مساكنك عند من يرجو مساكن السعادة الباقية مثل هذا الغار في أعيننا ، ويكون تعجبهم بما أنت فيه من الجمال والكمال مثل إعجابنا بما هذين المسكينين يظناه بأنفسهما . قال الملك : ومن هم أصحاب هذه الصفة وما الذي يصفونه من الملكوت الدائم ؟ قال الوزير : هم الذين يعرفون الله ويطلبون الآخرة دار السرور الذي لا حزن معه ولا يتعبه ، والدعة التي لا نصب فيها ، والنور الذي لا ظلمة تعقبه ، والعلم الذي لا جهل معه ، والمحبة التي لا بغض عنها ، والرضى والأمن اللذين ليس معهما سخط ولا خوف ، والحسن والطيب اللذين لا قبح معهما ولا نتن ، والصحة والحياة اللتين لا يعقبهما سقم ولا موت ، والسلامة الخالصة من جميع الشرور وتمام جميع الخير . قال الملك : فهل يذكرون أن لهذه الدار مطلبا أو إليها سبيلا ؟ قال : نعم لا يشكون أن من طلبها دخلها . قال فلم لا أخبرني بهذا قبل اليوم ؟ قال الوزير : لأن السلطان يعنى عن هذا ويصم ، ويدفعه العمى والصمم إلى الغضب والحمية ، ويحول بينه وبين الفكر والتدبر اشتغال قلبه بالهموم المتفرقة القريبة البعيدة واشتغال سمعه بالأحاديث والأقارب الملهية المنسية ، واشتغال بصره بالألوان والأشكال المطفية . قال الملك : لئن كان هذا حقا فليس ينبغي لنا أن نعمل ليلنا ونهارنا ولا نستمع لأسماعنا وأبصارنا إلا فيه ،

ولئن كان شكاً فيجب أن نعمل شغلنا في طلب علمه حتى نعلم أحقا هو أم باطل ، وأرى كتبك إياي هذا الأمر ما كان جميلا ، وأنى كنت بمودتك واثقا ، ولعذرِكَ مصدقا . قال الوزير إن هذا الأمر متقارب ما بين أوله وآخره ، وعارفه وجاهله إذا اتفقا على ترك فرائضه والعمل للدنيا التي هي عدوة الآخرة فأقتُ لم اعلمك هذه المدة رافة بك وخوفا منك كما أقام السابح على صاحبه الجاهل بالسباحة لما وقعا في الغمر .

قال : فكيف كان ذلك ؟ قال : إنه بلغنا أن صاحبين كانا متصافيين أحدهما سابح والآخر لا علم له بالسباحة ، ولا جرأة له على الماء ، فوقعا في الغمر فجعل السابح يعوم ليخرج من الغرق والتفت إلى صاحبه فوجده ينغمس في الماء ثم يطلع ، فلما رأى جهالته بالسباحة وقلة غنائه عن نفسه حثته المحافظة على أن أقبل عليه ولم يستجر أن يدنو منه مخافة أن يتعلق به فيغرقا جميعا ، فجعل يريه كيف يعمل بيديه ليهديه ، فحرك يديه مثله . فرجا حينئذ أن يخلصه فغمر نفسه في الدنو منه حتى أمسكته من يده ثم سبح به حتى خرجا جميعا ونجيا . وكذلك أيها الملك غمرت بنفسى في هذا لك مع علمى بقوتك وضعفى ، فلما رأيت الفرصة قد أمكنت ؛ كلمتك بذلك أفتأذن لى أن أذكرك بهذا الكلام ؟ قال : نعم دائما ففعل الوزير ذلك ، فكانت العاقبة للنجاة . قال ابن الملك ما أنا شاغل

(١٠)

نفسى بشيء عن هذا السبيل ، ولقد عزمت على الهرب معك ليلا .
قال الناسك وكيف ذلك ؟ تستطيع الذهاب معى وأنا ليس لى دابة
تحملنى ولا أملك ذهباً ولا فضة ولا أذخر غذاء ولا مسكناً ولا أستقر
ببلدة إلا قليلاً وكيف تقدر على صحبة من هم كالأموات ! قال ابن
الملك : كيف تجعلهم أمواتا ؟ قال لأنهم أماتوا أنفسهم البهيمية .
فهم يرتاحون بالموت الطبيعى . قال ابن الملك : وعباد الأصنام يزعمون
أنهم قد حصلوا على الموت كالنساك وهم يأكلون ويشربون كما تأكل
النساك وتشرب فما حجتك عليهم فى ذلك ؟

قال الناسك ذكروا أن رجلاً كان له بستان يقوم عليه فدخله
يوماً متعهداً له فأبصر عصفوراً على شجرة وهو يفسد ثمرها فغضب
له فصاده . فلما هم بذبحه قال له ليس فى شيء يشبعك . فهل لك فى
شيء خير مما هممت به ؟ قال : وما ذلك ؟ قال تخلى سبيلى وأعلمك
ثلاث كلمات إن حفظتهن كن خيراً لك مما تملك . قال الرجل قد فعلت
فأخبرنى بهن قال حتى تحلف لى أنك تطلقنى ، ففعل . قال لا تيأس
مما فاتك ، ولا تطلب ما لا تدرك ، ولا تصدق بما لا يكون ، فاطلقه
فطار ووقف على غصن وقال للرجل : لو علمت ما فاتك منى لعلمت
أنك قد فحمت فى شيء عظيم قال وما ذلك ؟ قال : لو كنت ذبحتنى
لوجدت فى حوصلتى درة مثل بيضة الأوزة فكنت تستغنى بثمرها
دهرك . فلما سمع الرجل ذلك ندم على إطلاقه ، وقال له ليخذه دع

عنك ما مضى وتعاهد صحبتي ، ولا تترك مكانك) فقد صار اسكل
 منا على الآخر حق . فقال العصفور : ما أراك أيها الجاهل حفظت
 الكلمات فليس تحفظني إن وقعت في يدك فهذا أنت متفجع مني
 على الفأنت طالب من رجعتي إليك ما لا تدرك مصدق بما لا يمكن
 لأن حوصلتي أصغر ما في والبيضة أكبر مني وامتكم هذه يابن
 الملك صنعوا أصنامهم بأيديهم وزعموا أنها خلقتهم وحفظوها مخافة
 أن تسرق وقالوا إنها هي التي تحفظهم ، وأنفقوا عليها مكاسبهم ،
 وزعموا أنها ترزقهم فطلبوا ما لا يدرك ، وصدقوا ما لا يكون .
 وأما قولك إننا نأكل ونشرب ونلبس مثلهم فأكلنا أكل مضطر
 كأكل لحم الموتى والملك الذي حصره عدوه في مغارة على شاطئ
 البحر له ولنسائه وأولاده فطال مقامهم ولم يكن لهم مخرج ولا معهم
 زاد فمات أحدهم وأشرفوا على الهلاك ففعلوا ذلك أراهم أكلوا
 أكل ضرر أو شهوة . قال : بل أكل ضرر شديد . قال هذا
 هو الفرق بين أكلنا وأكلهم فنحن نأكل لدفع الضرورة
 وكارهين وهم يأكلون مشتهين غير مضطرين . قال ابن الملك أما
 الأصنام فإني لم أزل لها كارها آيسا من خيرها فأخبرني ما أول الذي
 تدعونني إليه من الدين فأجابه أمران وهما معرفة الله والعمل بما
 يرضيه . قال كيف أعرفه قال ينبغي أن تعرفه بالوحدة والقدرة
 والمعدلة والعظمة ، والعلم بكل شيء والعلو على كل شيء قال وما
 الدليل على ذلك قال الحكيم ألا ترى أنك إذا رأيت صناعة لعرفت
 أن لها صانعا ، وإن كان عنك غائبا . فكذلك تعرفه بما تراه من

هذه المصنوعات السماء والأرض والشمس والقمر والكواكب
ودوران الأفلاك وجري الماء وحركة الريح والنار وتدير سائر
المخلوقات أن لها خالقا وقادرا حكما وهو العلي العظيم قال فما يرضيه
منا قال أن يأتي كل واحد إلى غيره بما يحب أن يأتي إليه منه ،
ويكف عنه ما يحب هو أن يكفه عنه . فإن في ذلك عدلا ، وفي
العدل للإله العادل رضى . قال : أما الآن فقد عرفتني النقص
في دين الأصنام وفي المقام على غير الصواب . فقال إنه لا يسعك الإقامة
على غير دين الله . قال وما الذى يمنعني من الإقامة على غيره ، وبضيق
على ذلك ؟ قال الجهل والعلم . قال وما ضيق الجهل وما سعة العلم فقال
العلم غنى والغنى سعة ، والجهل فاقة والفاقة ضيق . قال وما الذى يحقق
ذلك ؟ قال ألا ترى أن صدرك بضيق بما تجهل مما يسأل عنه وأنت
لا ترجو الفرج إلا في درك العلم بذلك قال قد رأيت من يرجو الفرج
فيما لا فرج فيه ولست آمن أن أكون منهم . قال هل أراك وعرفك
بهذا الرأى وخوفك منزلة أهله ؟ قال : ما خوفنيه إلا ذلك قال قد
سمعت بذكر الجنة والنار ولو أن لهما معنى وضع لشيء حقيق لم يكن
لهما اسم قال : لو يشاء الناطق أن يخرج المنطق على غير معنى لفعل .
قال الشاعر : رب حديث باطل معقول . قال فإن كلفتني
تصديق كل معقول ، فقد كلفتني تصديق الكذابين . قال : أنا
أكلفك التصديق بمعانى الأسماء المفردة غير المؤلفة بتأليف الكذابين
قال ابن الملك لقد اضطررتني إلى الإيمان بالله ، وما جاء من عنده من

الثواب والعقاب فعد إلى التزهيد في الدنيا . قال الناسك ليس كل
أحد يستحق الزهد فيها لأنها سجن الأبرار وجنان الفجار وكيف
لا يزهد فيها العارف أن نعيم الآخرة لا ينال الا بالانحلال من
الارتباط بالدنيا لأنهما داران متضادتان بعمارة إحداهما خراب الأخرى
ومن سعة الآخرة وكرمها أنها سهل مسلكها مفتحة أبوابها لكل
من سعى في سبيلها ، ومن ضيق الدنيا ولؤمها أنها ممتنعة على أكثر
طلابها ، وأهلها أشقى بها من أهل الرفض لها وربما توسل إليها
عندها بالزيادة في ضدها فهي تشبه مفازة معطشة مملوءة سباعا ضارية
ولصوصا عادية وشياطين مردة ووعلان خاطفة وسموم محرقة . ماؤها
سم قاتل ، ونباتها شجر الموت . في وسطها بستان عليه حائط لا
يرام ، وباب وثيق وفيه شجر مثمر وماء وظل ، ومن وراء تلك
المعاطش من إحدى جهتيها الخصب والريف والأنس ، ومن جهتها
الأخرى بحر السم يهب عليه سموم النار ، ولا يخرج من تلك المفازة
في غير هاتين الطريقين فهذه المفازة يمثل هذه الدنيا وما فيها من
النصب والتعب ، والبستان الذي في وسطها هو قليل ما فيها من
اللذات المزوجة بالحنن والمشقات ، والريف والخصب من إحدى
جهتيها منقلب الأبرار في الميعاد ، وبحر السم منقلب الفجار في
الآخرة . قال ولم يزل (بلوهر) الحكيم يتردد إلى ابن الملك أربعة
شهور بعظه ويعلمه . ثم قال (بلوهر) لابن الملك إن له ولأصحابه
عيدا قد حضر وأنه يريد أن يخرج إلى عيد أصحابه ليحضره معهم .

قال ابن الملك أنا أخرج معك . قال (بلوهر) إن خروجك معي
مما يحرض الملك علي وعلى أصحابي ويبيعهه علي مضرة أهل النسك
فنحرم سرورنا بك وسرورك بنا ، وتنقطع أنت عن حاجتك التي
أنت بالغها في السرور بإذن الله باللطيف . وبقاؤك عند الملك تكفيه
عن أهل الدين هو عبادة لك ، ولسنا نكره الموت لسكنا نكره أن
نعين علي أنفسنا . قال : أين تجتمعوا ؟ قال : في برية خصيبة .
قال : ما طعامكم من أي شيء ؟ قال : من نباتها وبقولها مما
لا ملك لأحد فيه . فأما أن يكون لنا بساتين أو زرع أو بقر
أو غنم فلا . قال : خذ في مزودك مالا لأصحابك . قال : كيف يضل
أصحابي بالمال ؟ ! فبئس الوافد إذا إليهم إن أتيتهم مستوقرا لهم من
الدنيا التي قد كانوا جاهدوها حتى ظهوروا عليها فآتيهم عدوا ، وأجدد
لهم شهوة ، فما حاجتهم إلى الاجتماع بعدو يذكرهم باطل الدنيا . فإن
عادوا إليها عادوا إلى القفر والهلكة وإن لم يعودوا إليها فهل الذهب
والجواهر إلا من جملة أنواع الحجارة التي لا حاجة لنا بها في برتنا .
قال فمن أين لكم الكسوة ؟ قال : هي شديدة علينا . فإذا وجدنا
ثوبا رجونا أنه آخر حاجتنا من الدنيا وكلفتنا على أهلها . قال . نخذ
كسوة تنوزعوها قال : لسنا نجد الثوب حتى يبلى ، ولا نتعجله
فندخره ليوم لا ندري أننا نبلغه أم لا قال : فمن أين لك هذه الكسوة
قال هذا قشر يستأنس إليه الشيطان اتخذته وصلة إليك فسأله
أن يريه كسوته ، فنزع القشر عن جلدة سوداء ممدودة علي قضب
ناحلة فرق لما رأى علي جسده من أثر العبادة وقال له اقبل مني

كسوة لجسدك . قال : كيف أقبل لنفسي ما عدلته عن أصحابي شفقة عليهم ولو كان خيرا آثرتهم به ؟ قال فادفع إلي ثيابك هذه وخذ عوضا عنها فإني أحب أن يكون عندي منك عهدا . قال استبد إلى جديدا بيالي مما يبسط آمالي بقدر ما بينهما من البقاء فليكن ما تعطيني أياه شبيها به في البلاء ، فاستدعي له بثوب من ثيابه وأخذ ثوبه وعاهده أن يرجع إليه قبل الحول إن لم يمت أو يغلب . فأجاب ، وودعه ودعي له وانصرف ، وأقبل ابن الملك على العبادة بالسر . فكان يخلع ثيابه ليلا ويلبس ذلك الثوب ، ويصلي فيه إلى الصباح وكان أمين الملك على ولده أنكر دخول (بلوهر) على ابن الملك فاصطنع حيلة وعرف الملك بذلك فامتلا الملك غضبا وجزعا ثم راجع نفسه بالأناة لما رجا بالحيلة لابنه فأحضر معبرا ساحرا ، وقال الذي دهانا الأمر الذي لم نزل نحذره ونخافه في ولدنا فما الرأي ؟ فقال الساحر : أول الرأي طلب هذا الرجل يعني (بلوهر) فإن ظفرنا به ضربته بحجنتنا على أهل النسك بما أحرموا أنفسهم من الرزق الذي أكرمهم الله به لينالوا منه ويشكروه عليه ، وما قطعوه من النسل الذي لا تعمر الأرض إلا به ويعتمد الحمد لله فإن بلغنا بذلك ما يستميل به ابن الملك ويعرف به خطاه فقد ظفرنا بالمقصود والا عاتبناه ثم ليست لكم صورة الناسك وظهرت لكم فيها حتى لا ينكر ابن الملك من عهد صاحبه شيئا ثم كلمته على لسان نفسه بتكذيبه ، واعتراه بضلالته فيما ادعاه من ترك عمارة الدينيا فإن دواءه ذلك وإلا رأيت فأنفذ الملك أمرا .. (وهنا تنتهي المخطوطة) .

حول ألف ليلة وليلة

من العبث حقا أن يزعم باحث أن القصص الشعبي ملك خالص
لأمة بعينها فنحن نعلم أن تاريخ الإنسانية لم يستطع حتى اليوم
إثبات قيام حضارة خاصة لشعب ما دون أن تكون متأثرة بعناصر
أخرى أجنبية ، وأن هذا المزج بينها وبين العناصر الغربية شرط
لا بد منه لقيام الحضارة وتقدم الإنسانية ، فمن المستنكر أن ننتظر
ظهور حضارة رفيعة عند أمة من الأمم دون أن تتأثر هذه الحضارة
بالتراث القديم للأمة أولا وثقافات الشعوب الأخرى التي تزاوجت
مع ثقافة الشعب الناهض ثانيا ، وبمقدار حيوية الشعب وقوته
الخالقة يكون أثره في خلق الحضارة الجديدة وتوجيهها . وحيث
يصفو الجنس ويتعدد عن التزاوج مع الأجناس الأخرى بسبب
الظروف الجغرافية أو العوامل الاجتماعية لن ينجح الشعب في خلق
حضارة عالمية أو ثقافية رفيعة . ولا أدل على ذلك من العشائر البدائية
النازلة في أواسط افريقية أو شمال أوروبا فهي نقية الجنس بعيدة عن
الاختلاط بغيرها لذلك تخلفت عن سائر الشعوب بخلاف الحال في
بلاد ما بين النهرين أو حوض وادي النيل أو وسط أوروبا أو الولايات
المتحدة الأمريكية حيث تمتزج العناصر الجنسية المتعددة وتتزاخم
الطبائع والفرائز المختلفة .

فإذا كان الأمر كذلك فكيف نتطلب من التراث الأدبي الشعبي الإسلامي أن يكون عربيا خالصا ! إن مدلول كلمة إسلامي يغير تماما مدلول كلمة عربي بل أن مدلول كلمة عربي في صدر الإسلام ليغير مدلول كلمة سامي والعلاقة بين اللفظين كما نعلم كملاقة الجزء بالكل . إن حضارتنا الإسلامية حضارة ورثت العرب وسائر الأمم السامية الأخرى التي عاشت في أطراف الجزيرة وكونت مع مرور الزمن دولا ، وخلقت حضارات وثقافات كالبابليين الآشوريين والآراميين والإسرائيليين والمعينين السبائيين وغيرهم فهذه الشعوب العربية جنسا والتي خضعت لعوامل مغايرة لتلك التي خضعت لها شعوب قلب الجزيرة وأطرافها الغربية لم تمت ولم تنقرض بل خلفت لنا علاوة على اللغة والأدب قصصا وقصصا رائعا حقا ، ويكفي هنا أن أشير إلى ما جاء في الكتاب المقدس خاصة هذا الجزء الخاص بالإسرائيليين حيث نقرأ أمثال استير ، وروث ، ويوسف ، وغيرها التي أشار القرآن الكريم إلى بعضها في أكثر من موضع .

وغير العرب وسكان الجزيرة ورثت الحضارة الإسلامية أيضا ثقافات الشعوب الإيرانية والمغولية والحامية ، وعن طريق البلاد الشرقية المطللة على البحر الأبيض المتوسط اقتبست كثيرا من العناصر الهلينية إما مباشرة أو عن طريق الترجمة لذلك يحق للباحث أن يقول إن الحضارة الإسلامية حضارة عالمية وإن كان الإسلام قد

وجهها التوجيه الذي رآه صالحا لها وللإنسانية . وهذه هي الميزة التي تتميزها عن الحضارات الأخرى .

وإذا أردنا أن نضرب مثلاً واضحاً جليلاً لهذه الحضارة وعناصرها ، ونبين مقدار تغلغلها في حياة العالم الإسلامي الشعبية وتوجيهها للسواد الأعظم من قراء العربية وجب علينا أن نعرض لألف ليلة وليلة فهو سفر لم يضعه شعب بل شعوب ، ولم يؤلف في عصر بل عصور ، ولم يدون في عاصمة بل عواصم ، ولم لا يكون هذا السفر كذلك ! ألم يكن ملكاً لسائر الشعوب التي استطلت براية الإسلام ؟ لذلك اتسع صدر ألف ليلة وليلة لمختلف الطبقات التي كان يتكون منها المجتمع الإسلامي ففيه نقرأ عن التاجر والصياد ، الوزير والملك ، الحكيم والجمال ، الخياط والحلاق ، الحشاش واللص ، الجندي والصيرفي ، الجزار والمحتال ، الدلالة والصائغ ، الاسكافي والخباز . كما نقرأ عن القضاء ، والجهاد ، وحياة الأسواق وتجارة الرقيق ، والحياة في الحريم والبيوت العامة ، وشيئاً عن القوافل واختراقها الصحارى ، والأسفار في البحار والأهوال التي قد يتعرض لها المسافرين ، وحتى الأديان وجدت طريقها إلى هذا السفر العظيم إذ نجد فيه حديثاً عن اليهودى والمسيحي والمسلم والمجوسى .

طبيعى إذاً أن نجد في هذا الكتاب عناصر فارسية وهندية ومصرية وعربية وعناصر أخرى قد يكشف عنها البحث لكن ليس معنى هذا أن هذا الكتاب أو هذا الجزء من الكتاب من

وضع الفرس أو الهنود أو المصريين أو غيرهم كما ذهب بعض الباحثين .
فقد ذكرت من قبل أن للقصة عناصر وأن هذه العناصر مشتركة
بين سائر البشر أحيانا فتكرارها في قصة من القصص لن يدل مطلقا
على أن هذا الشعب أو ذلك قد أخذها عن آخر وحتى لو كان هذا
العنصر في القصة وليد بيئة خاصة ألا وهي البيئة الفارسية أو الهندية
مثلا فإن العقلية الإسلامية كثيرا ما عملت فيه ما يعمل المزج
الكيمائي في العناصر الموجودة إذ يحولها إلى شيء جديد وهذه هي
سنة الطبيعة ، وجوهر الوجود ولدينا الكثير من الأمثلة لتأييد
هذا الرأي .

قدمت بهذه المقدمة لأن هناك نفرا من العلماء الأجانب ما كاد
يطلع على الترجمة التي نشرها (أنطوان جلند) عام ١٧٠٤ م حتى
ذهب يفترض مختلف الفروض حول هذه القصص وأخذ يشكك
القراء في عبقرية العربي وخياله الخصب وهذا ليس بمستبعد على الغربيين
فقد كانوا في ذلك العصر خاصة يحملون كل ضغينة وحقد للعنصر
السامي وكانوا يهاجمونه بمختلف الوسائل ، وشق عليهم أن تكون
هذه الثروة القصصية في اللغة العربية وثمرة من ثمار الحضارة الإسلامية
لذلك اتجه بعض علماء السنسكريتية من الأوربيين في ذلك الوقت إلى
القول بأن ألف ليلة وليلة ترجمة لقصص هندية والهنود آريون فهذه
الثروة إذاً آرية . وكان على رأس هذه الجماعة من العلماء (شليجل)
و (جلد ميستر) . ومن ثم ظهرت جماعة أخرى من الأوربيين أيضا

ومن المهتمين بالدراسة الهندية أمثال (فيبر) و (جرای) و (شربنتيميه)
وانضم إليهم بعض علماء اللغات السامية أمثال (مللر) (أوسترب)
و (ليمان) وقرروا رأيا وسطا وهو أن هذه القصص عربية فارسية
أو بتعبير آخر سامية آرية وإن اعتقد (أوسترب) أن بعض لياليها
فارسية هندية كقصة حسن البصري . وغير هذين الفريقين من
العلماء نجد فريقا ثالثا على رأسه (كوسكين) و (برزلسكي)
يقصر هذا العنصر الهندي فيها على بعض الحواشي والتعليقات
الواردة في القصص مثل عبارة (وكيف ذلك) فهي الهندية (كاثام
اتات Katham etat) ، وطريقة صياغة القصة ، والانتقال منها
إلى أخرى . ويرى هذا الفريق أيضا أن من العناصر الهندية الواضحة
العبارات الخاصة بالمرأة وخيانتها لزوجها أو قصص الحيوان والسندباد
وغيرها . وأنا أزعم أن علماء الصينيات واليابانيات مثلا لو وجهوا
عنايتهم إلى ألف ليلة وليلة لطلعوا علينا برأي جديد حول العلاقة
بين قصصنا وقصصهم .

ألف ليلة وليلة ليست في حاجة أن أتحدث عنه للقارى من حيث
محتوياته فهو قصصنا ونستطيع أن نقرأه في لغتنا لكن الشيء الذي
أحب أن ألفت النظر إليه هو أن بحثا مبتكرا يعالج هذه الليالي
ويساهم صاحبها في الكشف عنه وعن عناصره وأصوله ، في اللغة
العربية ، لم يظهر بعد . وآخر ما كتب عنه في مصر ما هو إلا هذا
العرض وذلك التلخيص لأبحاث بعض العلماء الأجانب ، ومما

يؤسف له حقا أن هذا لم يخل من الاضطراب ، وتنقصه الدقة ، ويعوزه التحقيق . وهو بالرغم من ظهوره عام ١٩٤٣ إلا أنه لم ينقل القارىء العربى إلا إلى حيث وقف الأوربى من عشرات السنين . ومرجع هذا النقص عدم المران على البحث الدقيق من ناحية وقلة وسائل الفحص من ناحية أخرى . ويكفى أن يطلع القارىء فى خاتمته على هذه العبارة مثلا (وهناك أيضا نواح مختلفة فى هذه القصص لم يتسن لنا درسها لقلة ما وجدنا من أسس نستطيع أن نعتمد عليها من جهود سابقة تنظم أمر الكتاب بعض التنظيم أو تصور حاله بعض التصوير . . . ونحن لا ندعى أننا قد وصلنا إلى نتائج هامة أو أحكام مقررة فى الموضوع . . .) ليدرك النقص ويلبس العجز .

والواقع أن الجهود السابقة التى تنظم أمر الكتاب بعض التنظيم أو تصور حاله بعض التصوير قد بذلت فعلا ، وما زالت المجلات العلمية من سامية وإيرانية وهندية تطلع علينا بين الفينة والأخرى بالبحوث المستفيضة حول هذا الموضوع ثم إن هذه البحوث ليست وقفا على علماء العربية من المستشرقين بل كثيرا ما نجد غيرهم من رجال السنسكريتية والإيرانية يطلعون علينا بالآراء الجديدة التى تلقى ضوئا شديدا على ألف ليلة وليلة هذا فضلا عن الكتب الكثيرة التى كتبها أناس عكفوا على الدرس وأدوا الأمانة العلمية أحسن أداء . ويكفى أن يطلع الإنسان على المجلد الثالث من الترجمة الألمانية لألف ليلة وليلة

للعلامة (أنوليمان) أو على تاريخ الآداب الهندية للأستاذ (فترنيتز) أو على البحث الذي تقدم به (أوسترب) عام ١٨٩١ حول هذا السفر للحصول على أجازة الدكتوراه من جامعة كوبنهاجن ، ومقاله القيم في دائرة المعارف الإسلامية ، وملحق (مكدنولد) ، ومجلة المستشرقين الألمان ، وغيرها ، وغيرها ليرى إلى أي حد كان المشرف على هذا البحث سخيا لما قبله كموضوع للمناقشة للحصول على لقب جامعي ولم يضاف إلى معلوماتنا أكثر مما جاء به بحث (أوسترب) عام ١٨٩١ م . ولعل آخر بحث ظهر في هذا الموضوع هو هذا الذي طلع به العالم (ل . السدورف) عام ١٩٣٥ ونشره في مجلة المستشرقين الألمان وعنوانه « شاهدان جديدان على الأصل الهندي لألف ليلة وليلة » وفي هذا البحث يحدثنا عن الخلاف القائم بين علماء السنسكريتية ، الذين يؤمنون بفكرة الأصل الهندي ، حول تحديد زمان ومكان ونوع الأدب الذي قد يكون هو المصدر الذي أخذت منه بعض ليالي ألف ليلة وليلة . ففريق من هؤلاء العلماء وعلى رأسه (فترنيتز) يقول إن الوطن الأصلي هو الهند الدنيا حيث الأدب السنسكريتي أو البركريتي ، ويعارضه فريق آخر يترجمه (برزيلسكي) يزعم أن الوطن الأصلي هو الهند القصوى ومن هذه البلاد انحدرت هذه العناصر الهندية التي تكون مع المجموعة المعروفة باسم (فتالابنسافيمستي Vetalapancavimsati) السيامية ضربا من الأدب ينتمي في الواقع إلى النوع المعروف باسم (سنيامفرا Svayamvara)

والذى يلعب دورا هاما فى الأدب السنسكريتي خاصة بين السكان الأصليين الذين كانوا مقيمين فى الهند قبل زوح العنصر الآرى إليها . أما الشاهدان الجديدان اللذان جاء بهما (السدورف) لتأييد رأيه فعبارة عن قصتين وردتا فى (فسد فهندى Vasudevahindi) (سنغداس Sanghadasa) ضمن نص بركريتي نشر فى (بها فنجار) عام ١٩٣٠ — ١٩٣١ . ويرى الباحث أن الشبه بين القصتين الهنديتين وبين ما جاء فى ألف ليلة وليلة قوى جدا حتى أنه يرجح أن القصتين العربيتين ترجعان إلى هذا الأصل الهندى . أما القصة الأولى كما جاءت فى النص الهندى فتلخص فيما يلى .

ثم طلبت بناء سفينة ، ولما تمت ، حملتها بالبضائع ، وعينت لها الخدم والملاحين ، وأرسلت إلى عمى (سرفرتا) أخبره عن حالى وأنى بخير وحصلت على خطاب توصية ملكى . ولما هب النسيم وأدركت أن الجو صالح للإبحار صعدت إلى السفينة وأحرقت البخور ، ومن ثم أقلعت السفينة إلى الصين ، ولما بلغت ماقت ببعض الصفقات التجارية ، وعقب ذلك أبحرت إلى سومطرة حيث زرت مدرن الشرق والجنوب مثل (كلبورا) و (ينفديفا) ، ومن ثم إلى سرنديب وإلى قوم البرaire ويونان الغرب حيث باشرت أعمالى التجارية وربحت كثيرا من الأموال التى استخدمتها فى شراء بضائع أخرى عادت على بأرباح مضاعفة . وحدث أن السفينة لما كانت على مرأى من شاطئ (كشياورس) هبت عاصفة شديدة حطمت السفينة

ولم أستطع النجاة إلا بعد جهد جهيد إذ ألقني الأمواج بعد عراك
شديد بيني وبينها دام سبعة أيام على شاطئ (أودومبراقتي) فجلست
تحت شجرة منهوك القوى خائر العزيمة من هول ما قاسيت ورأيت .
وفي تلك اللحظة حضر راهب متسول^(١) فقادني إلى قرية حيث
يسكن ، وفي كوخه أخذ يعني بي وبجسدي ، ومن ثم أخذ يسألني
عن حالي ، وكيف وقعت لي هذه النكبة وألت بي هذه المصيبة
فقصصت عليه قصتي فصرخ صائحا أخرج من كوخى أيها الشقي ،
فهممت بالخروج فاستدعاني ثانية وقال لي : بُني قد نهرك وأساءت
إليك لأبعث فيك شيئا من الاحترام لشخصي إنك مجنون كيف
تلقى بنفسك في التهلكة لأجل المال ! إن كانت هذه أميتك والمال
غايته فأنا كفيل لأن أغنيك دون تعب ومشقة وذلك في مقابل
خدمتك لي وبعد ذلك أدخل الراهب التاجر حماما وأمر أحد الخدم
أن يباشر غسل جسده ثم قدم له ماء أرز فشربه وهكذا قضى التاجر
عدة أيام .

والذي حدث بعد ذلك أن أوقد الراهب نارا وقال للتاجر
أنظر ومزج حديدا بأكسير ، وألقى بالمزيج في النار فخرج ذهباً نقيا
ومن ثم التفت الراهب إلى التاجر وسأله هل رأيت يا بني ؟ فأجابه
التاجر رأيت عجباً . فقال له الراهب إنه كيماوى ماهر يستطيع أن يصير

(١) في قصص (بينا) تمثل الرجل الشرير

الحديد ذهباً ، وإنه يعتبر كما لو أنه ابنه الحقيقي ولما كان هذا الابن مغرماً بجمع المال فإنه سيعلمه هذه الحكمة . لكن يتظاهر الراهب بأن كمية الإكسير التي معه قليلة لا تكفي ويعرض على التاجر أن يرافقه إلى مصدر هذا الإكسير إن رغب في الحصول عليه ، فأظهر التاجر استعداداً ، ورحب بالفكرة ، ووضع نفسه تحت تصرف الراهب .

وبعد ذلك نجد القصة الهندية تذهب بعيداً وتحدثنا كيف أن الراهب والتاجر تركا القرية ليلاً وواصلوا السير حتى أقبلوا على غابة ملأى بالوحوش والأفاعي مما اضطّر الرفيقين إلى التردد في السير فيها نهاراً ، لذلك قررا اجتيازها ليلاً حتى لا يتعرضا لأذى هذه الوحوش . وبعد مسيرة ليال كثيرة بلغا بئراً عظيمة مغطاة بالعشب والحشائش ، وهناك وقف الراهب وطلب إلى التاجر أن يستريح . وبعد فترة أخرج الراهب سترة من الجلد ولبسها وتظاهر كما لو أنه يرغب في النزول إلى قاع البئر حيث يوجد الإكسير ، فاعترضه التاجر وأبدى رغبته في القيام بهذه المهمة لأنه حريص على معرفة مكان الإكسير والحصول على أكبر كمية ممكنة منه . فأخذ الراهب يصف له البئر حيطانها وقاعها وكيف أنها تتسع كلما أتجه النازل نحو القاع ، وفي وسطها حوض من الماس وبه يوجد هذا الإكسير العجيب الذي يصير الحديد ذهباً . وكان الراهب يلاحظ على وجه التاجر علامات الفرح والسرور كما أدرك من حركاته رغبته الشديدة في النزول

فألبسه السترة الجلدية وأعطاه مصباحا سحريا وأجلسه على مقعد
مربوط بحبل ودلاه . فلما بلغ قاع البئر ملأ التاجر قنينة من
الإكسير ووضعها على المقعد وأخذ الراهب يجذبها إليه وما كاد يصل
إلى غايته حتى أخذ المقعد والحبل وولى . أما التاجر فإنه أخذ يصيح
ويستغيث ولا مغيث وأيقن أن الراهب قدمه قربانا لحاجته .

أدرك التاجر أنه سيموت ضحية الطمع في الحصول على المال
والرغبة في الثراء ، واشتد خوفه وفزعته عندما رأى نور مصباحه
السحري أخذ يحبو وأصبحت البئر ظلاما في ظلام . وبينما التاجر
يقلق ويتحسس على ما حوله إذ سمع صوتا خافتا لضحية أخرى من
ضحايا هذا الراهب ، سمع صوت رجل يكاد يلفظ النفس الأخير فسأله
هل من وسيلة إلى النجاة ؟ وبعد برهة أجابني الرجل : وقت الظهيرة
تأتي سحلاة كبيرة إلى هنا لتشرب وتخرج ولولا ضعفى وخوفى منها
لتعلقت بذيلها ونجوت فإن أردت لنفسك السلامة فتعلق بذيلها ،
وهى كفيلة لأن تخرجك من هذه البئر : وقد كان ذلك . فإني ما كدت
أبصر السحلاة خارجة حتى تعلقت بذيلها وأخذت تسحبني على
جدران البئر مساعدة حتى خرجت ونجوت . لكن لم أستطع
الاهتداء إلى الطريق ، وبينما أنا أفكر فى المال والمصائب التى جرّها
على إذ بشور عظيم يهاجمنى فوليت منه هاربا وتسلفت صخرة عالية
فنطحها الثور فخرجت حية لدغته فى خلفه وقضت عليه ،
ونجوت أنا .

هذه هي خلاصة القصة الهندية الأولى ويرى (السدورف) أنها الأصل الذي أخذت منه قصة حسن البصرى في ألف ليلة وليلة . ولم يكن هو أول من فكر في هندية هذه القصة بل قد سبقه (أوسترب) في بحثه بدائرة المعارف الإسلامية إذ قال عنها إنها هندية فارسية ، وأهم عناصرها عنصرا سرقة الريش والحيلة التي استطاع بها البطل الانتصار على الرجال الذين كانوا يتنازعون الميراث ليعود بحبيبته الهاربة . فهذان المنصران هنديان .

ويذهب (السدورف) بعيدا ويحاول أن يقارن بين مقومات هذه القصة الهندية وبين تلك التي نجدها في قصة حسن البصرى ؛ فالراهب هنا يقابل المعجمى المجوسى ، والتاجر الهندى هو حسن البصرى ، والرغبة في الثراء وتحويل الحديد إلى ذهب والمغامرات مشتركة في القصتين ، وأن المجوسى كلما شعر أن الإكسير كاد ينفد بحث له عن ضخمة أخرى وكذلك الحال كان مع الراهب ، وأن هذه الضخمية يجب أن تقدم قربانا حتى لا يعلم أحد مكان هذا الإكسير . وفي القصتين نقرأ أيضا المعاملة السيئة التي عومل بها كل من حسن والتاجر الهندى .

ولسكن كما أن هناك أوجه شبه بين القصتين إلا أننا نلاحظ بينهما فروقا أيضا ، ففي ألف ليلة وليلة يوجد الإكسير فوق جبل السحاب ، وفي الهندية في أعماق بئر ، كما أن حسنا بلغمة الجبل عن طريق الطائر المعروف باسم الرخ وذلك لأن المجوسى جاء بنتجيب من النجائب

وذبجه ، وسلخ جلده وأدخل فيه حسنا بعد أن أعطاه سكيناً يشق به الجلد بعد أن يبلغ القمة وخاط الجلد وطرحه أرضاً فجاء الرخ وحمله إلى الجبل . فرقا آخر نجده بين القصتين أيضاً وهو فرق جوهرى يتعلق بالإنكسار إذ بينما نجده فى إحدى روايات ألف ليلة وليلة عبارة عن عشب ، وفى رواية أخرى عبارة عن مسحوق إذ به فى القصة الهندية عبارة عن سائل . أما الأدلة الأخرى التى ساقها بعض الباحثين للتدليل على هندية القصة أو فارسيتها أو (هندية فارسية) مما أعنى مسألة الريش التى أشار إليها (أوسترب) فى دائرة المعارف الإسلامية وجرى خلفه آخرون فليست بالحجة القوية والدليل الواضح على إثبات هندية القصة ، وذلك لأن عنصر الريش هذا ليس قاصراً على الهند فقط بل نجده عند شعوب أخرى كثيرة ليست أسيوية فحسب بل أمريكية وإفريقية أيضاً ، وقبل أن نعرض له عند مختلف الشعوب نلخص ذكر القصة العربية له ، فنحن نعلم من قصة حسن الصائغ البصرى هذا أنه بعد أن نجا من مكيدة المجوسى جاء إلى قصر عظيم لم يملك مثله كسرى ولا قيصر ، ولما دخله وجلس فيه أخذ يتأمل ما حوله ، وبينما هو كذلك إذ بعشرة طيور قد أقبلت من جهة البر قاصدة ذلك القصر ، وتلك البجيرة ، فعرف حسن أنها تقصد البجيرة لتشرب من ماءها فاستقر منها خوفاً من أن تراه فتطير ثم إنها نزلت على شجرة عظيمة ودارت حولها ونظر حسن من بينها طيراً عظيماً هو أحسنها وأجلها وبقية الطيور حوله

تخدمه ، فتعجب حسن من ذلك المنظر ، وصار ذلك الطير ينقر
التسعة بمنقاره . وبعد ذلك جلست الطيور على سرير وأخذ يشق كل
طائر جلده بمخاليبه ويخرج منه فإذا هو ثوب من الريش وقد خرج
من الثياب عشر بنات أبكار يفضحن بحسنهن بهجة الأثار ، فلما
تعرين من ثيابهن نزلن البحيرة واغتسلن وأخذن يلعبن ويتمازحن
وكات أجملهن ترميهن وتغطسهن فيهربن ويظهرن كثيرا من آيات
الحسن والدلال . فشغف حسن بهذه الغادة ووقع في شرك هواها .
ثم بعد ذلك خرجن جميعهن ولبسن أثوابهن الريش فصرن طيورا
كما كن وعدن من حيث أتين . أما حسن فقد قرر الحصول على هذه
الغادة الطائرة واستعان بالآنسات اللواتي يقطن القصر الذي نزل به
فأخبرنه أن هذه الغادة ما هي إلا بنت ملك من ملوك الجان العظام ،
وقد ملك أبوها على كثيرين من الإنس والجن ، وأن هذه الفتاة على
جانب عظيم من الشجاعة والفروسية وسعة الحيلة وأما البنات اللواتي
معها فهن وصيفاتها ، وهذه الجلود الريش التي يطرن بها إنما هي
صنعة سحرة الجن وإذا أراد حسن أن يملك هذه الصبية ويتزوج
بها فليتربص لها في هذا المكان لأنها تحضر في أول كل شهر ، وإذا
ما خلعت ثوب الريش فليسرعه دون أن تراه فتعذر عليها العودة
إلى بلادها ، وقد فعل حسن ذلك ونجح فيه . . . فمن تلخيص
ما جاء في قصتنا العريضة حول ثوب الريش نخرج نحن في الواقع
بمعصر آخر يتصل بهذا اتصالا وثيقا أعني الطائر الآدمي أو الآدمي

الطائر فهذا العنصر قديم جدا ونجده عند مختلف الشعوب ، وما زالت
بعض قبائل الهنود الحمر في شمال أمريكا تعتقد فيه وتؤمن به
وما قصة سليمان وملكة سبأ إلا صدى لمثل هذا العنصر . ويحدثنا
علم تاريخ الأديان عندما يعرض لقصة الخلق عند الشعوب الهندية
الحمر في شمال ووسط كاليفورنيا حديثا ممتعا عن خلق الإنسان ؛ فهو
إما من عصى وإما من طين وإما من ريش . وعند قبائل (بومو)
الشرقية نجد الإنسان قد خلق إما من ريش وإما من عصى أو حجارة
أو شعر . وفي أسطورة اليوكي نجد السكان الأعلى يظهر إلى الوجود
كالآتي : في البدء كان يوجد الماء وعلى سطح جزء منه كانت توجد
رغوة عليها ريش ومن هذا الريش (رمز الخفة والنبوغ) خرج
صوت وغناء . ولم يقف عنصر الريش عند هذا الحد بل نجده وسيلة
من وسائل الزينة التي تفرضها الطقوس الدينية عند بعض القبائل ،
فالآدمي الطائر أو الريش كمصدر من مصادر الوجود ومظهر من
مظاهر القوة عنصر عالى وإن تنوعت النظرة إليه وتطورت عند
بعض الشعوب حسب حظها من الثقافة ونظرتها إلى الوجود . وما إلى
أذهب بعيدا والدهاء في مصر ما زالت تعتقد في الريش الموجود في
رأس الهدد وقوته السحرية .

وما قلته عن الريش استطيع قوله عن الحيلة التي انتصر بها
البطل ونال حبيبته .

أما القصة الثانية التي ساقها (السدورف) والتي أدعى أن أصلها هندي فتتصل بالطيران ، والطيران كما نعلم رغبة إنسانية قديمة لذلك لا نكاد نقرأ قصة شرقية أو غربية إلا ونجد فيها شيئاً عن إنسان طائر أو حيوان طائر أو مركبة طائرة أو بساط طائر أو . . . وقد وردت هذه الفكرة أيضاً في قصصنا العربي خاصة في ألف ليلة وليلة ؛ ففي الليلة السابعة والخمسين بعد الثلاثمائة نقرأ شيئاً عن حكاية الحكماء أصحاب الطاووس والبوق والفرس ، وهي تلخص في أنه كان في قديم الزمان ملك عظيم وبينما كان جالسا دخل عليه ثلاثة من الحكماء مع أحدهم طاووس من ذهب ، ومع الثاني بوق من نحاس ، ومع الثالث فرس من عاج وأبنوس ؛ فقال لهم الملك : ما هذه الأشياء وما منفعتهما ؟ فقال صاحب الطاووس منفعة هذا الطاووس أنه كلما مضت ساعة يصفق بجناحيه ويرعق . وقال صاحب البوق : إنه إذا وضع هذا البوق على باب المدينة ودخلها عدو زعق . وقال صاحب الفرس : إنه إذا ركبها إنسان فإنها توصله إلى أي بلاد أراد . فطلب إليهم الملك أن يثبتوا صحة ما قالوا ، فحرب الطاووس فوجده كما قال صاحبه ، وحرب البوق فوجده كذلك ، ومن ثم تقدم ابن الملك ورغب في أن يجرب الفرس فركبها فطارت به . ومن ثم تستمر القصة فتحدثنا كيف أنه نظر في وسط مدينة عظيمة قصراً شاهقاً فقرر أن ينزل فوقه فأدار زراً خاصاً فأخذ الفرس يهبط تدريجياً حتى نزل مستوياً على سطح القصر وأخيراً تبين له أن هذا القصر لبنات ملك المدينة ،

فتقوم علاقات بينه وبينهن وعلم بها الملك فقرر أن ينتقم منه ، فلم
ينفذ ابن الملك إلا هذه الفرس . هذا ما كان من أمر ابن الملك أما
ما كان من أمر والده فإنه حزن لفراقه حزنا شديدا وأمر بسجن
الحكيم الذي صنع هذه الفرس . وحدث أن عاد ابن الملك وأمر
بإطلاق سراحه وأجزل له العطايا ، إلا أن الملك لم يزوجه ابنته الثالثة
كما فعل مع الحكيمين الآخرين لذلك حنق على الملك وفكر في
الانتقام ، وكان أن استرد فرسه وأغوى الفتاة التي أحبها ابن الملك
وأخذها معه . ومن ثم نقرأ كيف وقع الحكيم والفتاة والفرس
في قبضة ملك جائر وكيف أن ابن الملك الذي يحبها أقبل وخلصها
واستولى على الفرس التي أمر والده بتكسيها بعد ذلك .

هذه هي خلاصة القصة العربية التي يدعى كل من (بنفى)
و (اوستروب) أنها هندية فارسية وأنها تتصل اتصالا وثيقا بهذه
القصص التي يرد فيها عنصر الفرس التي تطير والتي ترجع إلى القصة
الهندية المعروفة باسم (بنكاتنتر) .

أما القصة الجديدة التي يذكرها (السدورف) والتي يعتقد أنها
أصل القصة العربية فتتلخص في أنه كان يجلس على عرش مدينة
(تامراييتي) ملك يدعى (ريبوادمنا) وكان ينادمه تاجر غني ، وكان
يعيش في نفس المدينة نجار فقير مات عن طفل لم يرث إلا الفقر
والتعب والهم والحزن . وكان هذا الطفل يقات من قشر الحبوب
لذلك أطلق عليه اسم (كوكسا) . وحدث أن ابن التاجر الغني جهز

يوما مر كبا وملأها بالبضائع المختلفة ، وأراد الإبحار بها إلى بلاد اليونان لبيعها ، وفي اللحظة الأخيرة قرر أن يأخذ معه (كوكسا) هذا ، وكان له ما أراد . أقلمت السفينة ووجهها الملاحون حيث شاءوا ، وبعد زمن ما بلغت بلاد اليونان وألقت مراسيها ، وخرج ابن التاجر و (كوكسا) ومن معهما يحملون الهدايا إلى ملك اليونان في الوقت الذي أخذ فيه التجار يعقدون صفقاتهم التجارية .

وتذهب القصة فتحدثنا أن (كوكسا) هذا توجه إلى بيت نجار في المدينة وقضى يومه هناك فرأى أن النجار يعلم أبناءه مختلف الحرف إلا أن الأولاد انصرفوا عن والدهم ولم يتقنوا شيئا . فما كان من النجار ، الذي تنبه إلى يقظة (كوكسا) ولمح في عينيه الذكاء والفتنة ، إلا أن أبدى اهتماما مشكورا معه وعرض عليه أن يعلمه صناعة النجارة ويقرب إلى ذهنه دقائقها ، ويطلعه على أسرارها . وما كادت السفينة التي أفلته من الهند تستعد للعودة إلا وكان (كوكسا) قد أجاد هذه المهنة ونبع فيها .

عاد (كوكسا) إلى الهند وهو يعلم أن الفقر ينتظره ، ففكر في عمل شيء يلفت النظر إليه ويضطر الملك إلى الاهتمام به فصنع حمامتين كان يرسلهما يوميا إلى مخازن أرز الملك وتأتيان له ببعض هذا المحصول فتنبه الحراس إلى هذه الحادثة وأدركوا أن المحصول أخذ في النقصان ، فحشوا غضب الملك وأخبروه عن الحمامتين اللتين تأتيان كل يوم إلى المخازن وتنقلان المحصول إلى بيت (كوكسا) . فلما تحقق

الملك من هذا الحادث أرسل وطلب إحضار (كوكسا) فلما مثل بين يديه وقص على الملك قصته أجزل له العطاء وطلب إليه أن يصنع له مركبة تطير في الهواء ، وقد كان إذ لم يمض زمن طويل إلا وكان قد أعد (كوكسا) المركبة ، وصعد فيها مع الملك وطارا فوق أما كن مختلفة ، وشاهدا كثيرا من عجائب الكون والمخلوقات .

ولما رأت الملكة هذه المركبة وعلمت بقدرتها على التحليق في الجو ألحت على الملك في الطيران معه ومع (كوكسا) رغما من أن الأخير أخبرها أن المركبة لا تتسع إلا لثنين فقط ، وإنها لن تقوى على الطيران بثلاثة ، ورغما من كل هذا ومن تحذيرات الملك إلا أنها تشبث برأيها وركبت المركبة التي لم تكد تنطلق في الجو إلا وتقطعت حبالها وهوت بركابها وإن لم يصب أحد بأذى . ترك (كوكسا) الملك والملكة وتوجه إلى مدينة (تسالي) لإحضار بعض أدوات النجارة لإصلاح المركبة فقصد نجارا ورجاه أن يعطيه قدوما فتردد النجار لأنه كان مهتما بعمل مركبة للملك فما كان من (كوكسا) إلا أن تناول المركبة ، وفي زمن قصير جدا أتم بناء المركبة فاندھش النجار ، وعلم منه أنه (كوكسا) الشهير فرجاه النجار أن ينتظر حتى يأتيه بقدوم من منزله وتوجه وأخبر ملكه (كاكينجا) أن (كوكسا) قد حضر إليه وأنه في منزله ، فطلب الملك إحضاره إليه ومنحه كثيرا من العطايا . ومن ثم سأله عن قصته وعن سبب حضوره فأخبره ما حل بالمركبة الطائرة وما كان من أمر الملك

(ريبودمنا) وزوجه . ولما كانت العداوة بين الملكين مستحكمة أرسل (كا كينجا) وأحضرهما إليه وضم الملكة إلى حريمه ، وعامل الملك معاملة الأسرى . أما (كوكسا) فقد كلفه (كا كينجا) بتعليم الأمراء فن النجارة وسرّها فتردد (كوكسا) إلا أن الملك اضطره إلى ذلك اضطراراً فصنع (كوكسا) فرسين تطيران فركب كل أمير فرسا وطارا بينما كان النجار نائماً فلما استيقظ (كوكسا) وعلم بذلك غضب لأنه يعلم أن الأميرين لا يحسنان استخدام الفرسين ، ورجح أنهما لن يعودا ثانية فلما رأى هذا الخبر إلى والدهما حنق على (كوكسا) وأمر بإعدامه . فلما أيقن النجار أن الانتقام لاحقه فكر في الثأر لنفسه قبل أن يلقى حتفه فصنع مركبة مستديرة ، وقال لساير الأمراء اجلسوا فيها ولما أنفخ في البوق اضططوا جميعهم على الآلة الموجودة في الوسط فترفع بهم المركبة إلى كبد السماء . ولما سيق النجار إلى الإعدام نفخ ، وضغط الأمراء فلم يشعروا إلا والخوازيق تمزق أحشاءهم . أعدم (كوكسا) وسأل الملك عن بقية الأمراء فأخبر أنهم لاقوا حتفهم فحزن ومات .

ولم يكتف (السدورف) بهذه القصة بل يذكر أخرى يعتقد أنها تكملة للسابقة ، والقصتان في رأيه هما الأصل الذي أخذت عنه قصتنا العربية . وأنى وإن كنت أقر (السدورف) على أوجه الشبه القوية الموجودة بين القصتين إلا أن عنصر الطيران هذا وغيره من العناصر القصصية يجب ألا يقوم دليلاً على صحة رأيه خاصة ونحن نعلم

أن هذا العنصر قديم في العالم السامي نجده في العهد القديم في قصة
(اليا) وصعوده إلى السماء ، واعترفت به المسيحية ، ولم ينكره
الإسلام . وكأني بالباحث قد شعر بضعف حججه فوجه حديثه إلى
علماء اللغات الهندية ورجاهم أن يعنوا بهذا النوع من القصص
الهندي الذي قد يتصل ببعض قصص ألف ليلة وليلة سواء في العناصر
أو الهيكل ، أخيراً وجه ندائه إلى الذين يعنون بهذا النوع من
الدراسات ورجاهم أن يقوموا على نشر أقدم نص لهذه الليالي ، معتقداً
أن النص كلما أمعن في القدم كلما كانت العلاقة بينه وبين القصص
الهندي أقوى وأوضح .

قصصنا في الغرب

لا أريد في هذا الفصل أن أحصى القصص التي استعارتها أوروبا في العصور والمناسبات المختلفة من الشرق ، فمثل هذا الموضوع يحتاج إلى المجلدات ، بل أقصد لفت نظر القارئ العربي إلى ظاهرة هامة لم تكن معروفة للكثيرين من قراء العربية ألا وهي سفر ألف ليلة وليلة وأثره في الأدب البيزنطي . فهذه الناحية لم تلق الاهتمام الكافي من العلماء لا في الغرب ولا في الشرق بخلاف هذه البحوث العديدة التي ظهرت حول هذا الكتاب ومصادره الهندية الفارسية مثلا !

إن أثر ألف ليلة وليلة في الآداب البيزنطية قديم متفاوت في القدم ؛ فنحن نجده في الأغاني البيزنطية الشعبية التي كانت ترددها السنة العامة في القرنين التاسع والعاشر ؛ هذه الأغاني التي تخلد أعمال الرجال العسكريين البيزنطيين الذين قتلوا في ميادين الحروب دفاعا عن بزنطة وأملأوها التي كثيرا ما هاجمها العرب وانتقصوها ، أو تصور حياة العالم الإسلامي الشرقي كما تصورها البيزنطي في تلك العصور . كما نجد بعض هذه الليالي أيضا تبعث إلى خلق ملحمة كاملة ما زالت أغانيها حية حتى اليوم ترددها الألسنة ويتوارثها الأحفاد .

أما الفضل في كشف هذه الناحية فيرجع قبل كل شيء إلى جهود بعض علماء البيزنطيات وعلى رأسهم العلامة (هنري جريجوار) فقد عكف هذا العالم البلجيكي سنوات طويلة يدرس هذه الناحية الغامضة من نواحي الأدب البيزنطي حتى انتهى مع زملائه إلى الاعتراف بوجود هذا الأثر الأدبي الإسلامي . وأول من تنبه إلى هذه الظاهرة هو العالم (مكس بودنجر) الذي تنبأ بوجود الملحمة البيزنطية بفضل حصوله على الأغنية المشهورة لابن اندرونيكوس ؛ فهذه الأغنية البيزنطية ولو أنها ترجع إلى العصور الوسطى إلا أنها لا توجد مستقلة ، بل تكون حلقة من سلسلة من الأغاني التي توجد عادة في الملاحم . وقد وفق هذا العالم فيما ذهب إليه أحيانا كما صدقت نبوءته حول الملحمة البيزنطية .

أما الملحمة التي تعنيها هنا والتي يجمع العلماء على أنها ترجمة حرفية أو بتصرف لبعض ليالي ألف ليلة وليلة فهي تلك المعروفة في الأدب البيزنطي باسم (ديجنيس أكريتاس Digénis Akritas) . فهذه الملحمة وإن كانت من نتاج القرن العاشر الميلادي إلا أن الباحثين لم يهتدوا إليها إلا في القرن التاسع عشر إذ نشر كل من (ساتاس) و (ليجرند) النص المحفوظ لهذه الملحمة في (ترازنت) وقد كان ذلك عام ١٨٧٥ م^(١) . وقد قدم الناشران لهذا الكتاب

(١) Sathas und Legrand, Editio princeps der Exploits
de Digénis Akritas 1875

بمقدمة ضمناها أحكاما ثبتت صحة بعضها كقولها مثلا إن بين هذه الملحمة وبين الحوادث التي نَجدها في قصة « ذات الهمة والبطال »^(٢) شبيها قويا ومن حسن الحظ أن هذا الملحمة البيزنطية وصلتنا . كاملة كما أن أغانيها ما زالت ترددها إلى اليوم السنة الشعب اليوناني ، ولو أن كثيرا منها سابق لجمعها ووضعها ولا يعرض لبطل من الأبطال الذين جاء ذكرهم في الملحمة . وتنقسم الملحمة إلى قسمين رئيسيين أولهما يتحدث عن أمير عربي قام بكثير من الأعمال الحربية ، فقد هاجم بيزنطة ، وفتح كثيرا من أقاليمها ، وأسر ابنة أحد القواد ، فتبعه أخوها واستطاع أحدهما أن يلحق به ويهزمه ويسترد أخته التي كان هذا الأمير العربي ينوي الزواج بها . فلما افلقت من يده ، وكان يعشقها تبعها كما أظهر الرغبة في اعتناق المسيحية ليتمكن من الحصول عليها ، وقد تم له ذلك فعلا إذ أنه ما كاد يعبر الحدود البيزنطية حتى أعلن خضوعه وولاءه للقيصر . وتذهب الملحمة بعيدا وتحدثنا أن هذا الأمير العربي رزق من زوجه هذه بولد جعلت منه الملحمة بطلا وأطلقت عليه اسم (بزيليوس ديجنيس اكريتاس) وقد قام هذا البطل بكثير من أعمال البطولة والفروسية لكن معركة واحدة لم يخضها ضد العرب ، وكانت كل أعماله منصبة على محاربة

(٢) راجع هذا الكتاب ص ٤٩ — ٥٢ و ص ٦٢ . وقد نقلت

هذه القصة إلى التركية باسم — سيد بطل —

قطاع الطرق ، والحيوانات المفترسة كما أن الملحمة أبت إلا أن يكون
كوالد فاختطف لنفسه ابنة أحد القواد .

وقد عنيت الملحمة بمسألة أخرى هامة ألا وهي الدعاية والترويج
لسياسة حسن التفاهم مع العرب والعمل على التقريب بين الشعبين ،
وقد أيد التاريخ حقا صحة ما ذهبت إليه الملحمة وإن كانت قد انتهت
فكرة المهادنة ودفن الأحقاد بين الشعبين بالهجوم الذي قام به
(نيكفوروس فوكاس) عام ٩٠٠ م لزعزعة العرب الذين كانوا
محاصرين لحصن (منستر) الحالى الواقع غرب (قونية) والذي كان
يعرف قديما باسم (مسياس) كما حاول البطل (كركواس) الاستيلاء
على البلاد الممتدة على الفرات عن طريق عقد معاهدة مع أمير
(مليتين) العربى وهو أبو حفص الذى عقد عام ٩٢٨ م صلحا
مع (كركواس) .

والمطلع على هذه الملحمة يجد صدى هذه الأحداث التاريخية
العربية البيزنطية كما يقتنع لأول وهلة كيف أن المؤلف البيزنطى
استغل كثيرا من الأغاني العربية والقصص الشعبى الذى كان
منتشرا فى العالم الإسلامى فى ذلك الوقت وتسرب إلى بعض ليالى
ألف ليلة وليلة . ولعل أقدم أغنية جاءت فى تلك الملحمة هى تلك
التي تقع فيما يقرب من مائتى بيت وهى المعروفة باسم أغنية
(أرموريس) وهى أغنية شعبية نظمت للشعب وفى لغة الشعب ،
ويرجح أنها ترجع إلى ما يقرب من عام ٨٦٠ أما (أرموريس)

هذا الذى تخلد هذه الأغنية أعماله فما هو إلا ذلك البطل الذى ثار لأبيه وحرره من العرب بعد أن ساقوه أسيرا ولكي يتمكن من تحقيق أمنيته هذه جمع جيشا عظيما عبر به الفرات وانقض على المسلمين فهزمهم ومن ثم أخذ يتوغل في سوريا حتى بلغ عاصمتها . ويرى العلامة (جريجوار) أن (ارموروبولوس) هذا عبارة عن اسم يشير إما إلى الأسرة التي خرجت من (عموريا) وإما إلى آخر قيصر من هذه الأسرة ألا وهو (ميخائيل الثالث) . وقد كان أول مسيحي حارب عبر الفرات وانتقم لسقوط عمورية عام (٨٣٨) م . ففي هذه الأغنية نقرأ حقا رغبة الانتقام التي كانت متسلطة على نفوس الجنود البيزنطيين في الحرب التي دارت رحاها فيما بين عامي ٨٥٩ — ٨٦٣ م .

وليست هذه الأغنية هي الوحيدة التي تستمد عناصرها من ثمرة التفكير الإسلامي بل هناك أغاني أخرى معاصرة لها كأغنية (لودفج) كما نجد غير ملحمة (ديجنيس اكريتاس) أخرى تعنى بأمثال (ليو) الثالث أو (قنسطنطين) الخامس .

وفي القرن العاشر ظهرت أغاني أخرى تشيد بأعمال (اندرونيكوس — قنسطنطين) كما نجد مجموعة تعرف بمجموعة (دوكاس) . فمن هو (أندرونيكاس) هذا ؟ هو والد قنسطنطين القائد الشهير المعروف أيضاً باسم (أندرونيكاس دوكاس) الذي انتصر على العرب أيام (ليو) السادس (٩٠٥ — ٩٠٦) إلا أنه اتهم بالخيانة فهرب مع ابنه (قنسطنطين) إلى سوريا حيث احتق بهما

القصر العباسي احتفاء باهراً . لكن لم يمض زمن طويل حتى نجد
(قنسطنطين) هذا يعود إلى بيزنطة ويحسن القيصر استقباله ، كما
عطف عليه الشعب وأحببه لذلك استغل هذه الفرصة واغتصب
العرش لنفسه . وقد أثر هذا الحادث في الشعب تأثيراً كبيراً كما
يتجلى لنا ذلك من الكتاب الشعبي المعروف باسم (فيتا بازيل)
وهو كتاب وضع في منتصف القرن العاشر الميلادي ، لذلك لا عجب
إذا رأينا المصادر الإسلامية والبيزنطية تهتم بالوالد وابنه وتخصهما
بكثير من العناية . ففي ألف ليلة وليلة نقرأ في قصة عمر الزمان التي
كانت مرجعاً هاماً للمؤلف البيزنطي شيئاً عنه فقد جاء في الليلة
التاسعة والثمانين في وصف الحرب التي قامت بين المسلمين والبيزنطيين
أن (ذات الدواهي) قالت : فوحق المسيح ما قوى عسكر المسلمين
إلا هذا الشيطان الملك (شركان) فقال (أفريدون) : إني قد عولت
في غد على أن أصف لهم الصفوف وأخرج لهم الفارس المعروف
(لوقا بن شملوط) فإنه إذا برز إلى الملك (شركان) قتله وقتل غيره
من الأبطال . أما (شملوط) هذا فهو في الواقع عبارة عن
(ايشملطوس) لقب (أندرونيكوس) الذي وقع في الأسر كما جاء
في النص اليوناني . ويرجح أيضاً أن قنسطنطين هذا هو (فرفوروس)
الوارد ذكره في الشهادة وقد ثبت لدى علماء البيزنطيات أن
(بوريفوريوس Porphyrios) الوارد ذكره في الأغاني اليونانية
عبارة عن لقب لقنسطنطين دوكاس ، وذلك لأنه لما اغتصب العرش
أطلق عليه اسم (الديك الأحمر) وكلمة (بوريفوريوس) مأخوذة

من لفظ (بربر Purpur) أى قرمذى لأنه يقال إنه لما حضر لاعتلاء العرش كانت برفقته امرأة ترتدى ثوبا قرمزيا . والنتيجة هى أن كلمة (بوريفوربوس) لقب لقسطنطين دو كاس وهو شخصية تاريخية لعبت دورا هاما فى القرن العاشر الميلادى . ولكى أقرب للقارى مدى تأثر هذه الأغاني البيزنطية بالعربية أذكر على سبيل المثال قصة وردت فى النصف الأول من ملحمة (ديجنيس) فهى تتحدث عن أمير تقول عنه إنه حفيد لأمير عربى يدعى (أمبرون) ، وهذا الاسم فى الواقع حيلة من حيل المؤلف أراد منها أن يفهم القارى أن عناصر الملحمة بيزنطية الأصل ، وتعرف هذه القصة اليوم باسم « مفخرة مليتين Geste de Mélitène » أو « مفخرة عمر Geste d'Omar » . وذلك لأن (أمبرون) كما ثبت الآن ، وكما نعرف من المؤرخين اليونانيين عبارة عن الأمير العربى الشهير باسم (عمرو الملقب) الذى أضر بالبيزنطيين أضرارا بليغة (٨٣٨ - ٨٦٣) م . وهذا الرأى ليس مجرد فرض بل حقيقة واقعة إذ ثبت الآن فى (مفخرة مليتين) أو (مفخرة عمر) وجود كثير من العناصر العربية خاصة من القصة المشهورة المعروفة باسم (ذات الهمة والبطال) مع بعض الخلاف اليسير إذ أننا نجد فى قصة ذات الهمة مدحا كثيرا لخصوم (عمر) ألا وهم بنو كلاب ، ومن بينهم الشخصية الشهيرة المعروفة باسم (عبد الوهاب) وأمه ذات الهمة . وفى ألف ليلة وليلة نجد (عمر) ليس بالشخصية المحببة إلى النفس . وقد ثبت أيضاً أن أميرة عمر وابنيه (رمران) و (شركان) عبارة عن شخصيتين

جاهليتين حفظ لنا التاريخ اسم أحدهما وهو (رامزان) كاسم لأحد قواد خسرو الثاني المسمى (رومزان — شهربراز — فرخان). أما شخصية عمر كما تصورها القصة فتنتطبق على شخصية الملك الفارسي (خسرو) وطريقة وفاة عمر تذكرنا بما أصاب خسرو في آخر حياته. ومن العناصر العربية الأخرى التي نجدتها في هذه الملحمة البيزنطية الحيلة التي اتبعها (خرزان) لفض بكارة (أريته) فهي ترجمة للحيلة التي اتبعها عمر مع (أبريزة). هذا إلى جانب حياة العاشقين التي تصورها الملحمة فهي حياة صحراوية غير مألوقة في بلاد اليونان أو في آدابهم. فنحن نقرأ هنا كيف أن اثنين من هؤلاء انصرفا إلى الصحراء بعيدين عن أعين الرقباء وأقاما زمنا طويلا عند نبع من ينابيع المياه التي تتفجر في أودية الصحراء، وهناك اضطر العاشق أن يدافع عن حبيبته فقاتل مختلف الأعداء مثل التنين، وقطاع الطرق، وحتى الأسد. والمتأمل لهذه القصة والمطلع على ألف ليلة وليلة يدرك لأول وهلة أنها ترجمة حرفية لقصتنا العربية الواردة في الليلة الرابعة والأربعين بعد المائة والتي تليها أعنى قصة «حماد الفزاري وعباد بن تميم» وهي تلخص في أن الفزاري كان قاطع طريق فوقع مرة أسيرا في يد الملك (كان ما كان) وقبل أن ينفذ فيه حكم الإعدام طلب إلى الحضور أن يمهله حتى يقص عليهم قصة قد تشفع له عندهم، فلما أجيب إلى رغبته أخبرهم أنه خرج مرة يريد الصيد والقنص فواجهه جماعة في الطريق فلما عرفوا قصده رافقوه وساروا معه في الصحراء طويلا حتى اشتد

عليهم الحر والعطش ووقفت خيولهم وأيقنوا بالهلاك . وبينما هم كذلك أبصروا من بعيد مرجا فيه غزلان تفرح فانتعشت نفوسهم واتجهوا نحو ذلك المكان وتقدم حماد إلى باب الخباء فرأى فيه شابا جميلا وعن يمينه جارية هيفاء فلما نظر إليها أحبها واشتهاها ، ويدور بين حماد وبين هذا الشاب حديث حول هذه الغادة ينتهي إلى الطعان . واستطاع عباد بن تميم أن يقتل سائر أعوان حماد واستسلم حماد له . وعقب هذا النصر نجد ابن تميم يخاطب هذه الغادة التي يقال إنها كانت أخته بهذه الأبيات :

تقول وقد رأيت في الحرب أختي لوامع غرقتي مثل الشعاع
ألا لله درك من شجاع تذلل لحربه أسد البقاع
فقلت لها سلى الأبطال عني إذا ما فر أرباب القراع
أنا المعروف في سعد وجدى وعزى قد علا أى ارتفاع
أيا حماد قد نازلت ليثا يريك الموت يسعى كالأفاعي
ومن ثم دعا بالطعام فحضر وأمر أخته أن تأتى بعشر خلع من الحرير وتنتهى القصة بخيانة حماد وقتله (عباد) أثناء نومه .

والشئ الجدير بالذكر هنا أن الشاعر اليونانى الذى أخذ هذه القصة فهم الأبيات السالفة كما لو أن المعانى الدالة عليها حقيقة وليست مجازا لذلك تحدث فى الملحمة اليونانية عن التنين والأسد . وغير هذه القصة نجد عناصر أخرى واردة فى الملحمة لا يمكن فهمها إلا على ضوء بعض قصص ألف ليلة وليلة وقصص شعبية أخرى كخطف الحبيبة وهرب المحبين .

الفهرس

الصحيفة

٤ — ١	مقدمة
١٩ — ٥	مصدر القصة
٢٤ — ٢٠	تكوين القصة
٣٥ — ٢٥	من الأساطير السامية
٤٣ — ٣١	قصة برج بابل
٥٢ — ٤٤	قصصنا الإسلامي
٦٠ — ٥٣	سيرة سيف بن ذي يزن
٧٠ — ٦١	الهلالية
٧٧ — ٧١	سيرة عنترة
٨٧ — ٧٨	قصصنا الشعبي المسرحي
٩٦ — ٨٨	عجيب وغريب
١٠٣ — ٩٧	المقيم
١١٠ — ١٠٤	لعب التمساح
١١٨ — ١١١	لعب المنار
١٥١ — ١١٩	برلام ويواسف
١٧٢ — ١٥٢	حول الف ليلة وليلة
١٨٢ — ١٧٣	قصصنا في الغرب

شارع القصر العيني دار الفكر العربي تليفون ٥٦٤٦٧

قصة الاضطهاد الديني في المسيحية والإسلام :

للدكتور توفيق الطويل

قصة الاضطهاد الدائم الذي أنزله الرومان بالمسيحية ، وسيرة الاضطهاد في الإسلام . على ما يمتاز به الإسلام من تسامح وحرية . وثمنه ١٨ قرشا

قصة المرض والميكروب للدكتور محمد عبد الحميد جوهر
أول كتاب من نوعه يشتمل على طرائف علمية عن الأمراض وميكروباتها ،
وطرق علاجها ، صيغت في أسلوب قصصي بديع . . . وثمنه ١٥ قرشا

التعب للأستاذ أبو مدين الشافعي
بحث نفسي علمي ، ثمرة تجارب طويلة في معمل علم النفس بكلية الآداب
بجامعة فؤاد الأول . يدرس التعب ومظاهره ونتائجه وعلاجه وثمنه
٢٠ قرشا

رحلاتي في مشارق الأرض ومغاربها للرحالة محمد ثابت
خلاصة واقية لأربعة عشر عاما من التنقل في بلاد العالم . حقائق علمية
ثابتة في أسلوب أدبي جذاب . . . وثمنه ٢٢ قرشا

السلام الاجتماعي للأستاذ عبد المجيد نافع المحامي
ثورة على النظام الرأسمالي في مصر والشرق العربي ، وصرخة من
الأعماق معلننة فساد النظام الاجتماعي الحاضر ، ورسالة قوية للقضاء على
الفقر والجهل والمرض . . . وثمنه ٣٠ قرشا

أمهات المؤمنين وأخوات الشهداء للسيدة وداد سكا كيني
جوانب حية رائعة من حياة المرأة في الإسلام ، جلستها الكاتبة في صورة
من الأدب الرفيع والقصص الرائع بأسلوب جزل . . . وثمنه ١٥ قرشا

من قصص الأولين (صور من فجر النبوة والإسلام) :

للأستاذة محمد البجاوى وأبو الفضل إبراهيم والسيد شحاته
كتاب يحلو للقارىء أجل فترة من تاريخ المسلمين بما يعرض من سير زعمائه
وقادته ومفكره . . . وثمنه ١٥ قرشا

نشأة اللغة عند الإنسان والطفل : للدكتور على عبد الواحد وفى
فتح جديد فى البحوث اللغوية يجمع بين سداد المنهج وغزارة المادة وجمال
الأسلوب يقع فى ٢٠٠ صفحة وثمنه ٢٠ قرشا

الأخلاق بلا إزام ولا جزاء : تأليف ج . م . جويو

تعريب سامى الدروبي

ثورة فى عالم الفلسفة الأخلاقية تلتقى فكرة الواجب الخارجى ، وتحل محلها
فكرة واجب داخلى ناتج عن فيض القوة ، وتدفع الحيوية ، وحب المغامرة
وفرح البطولة ، وخصب العاطفة . . . وثمنه ٣٥ قرشا

الطاقة الروحية : تأليف هنرى برجسون تعريب سامى الدروبي
من الحركة الفلسفية الجديدة التى فضحت تناقضات الفلسفات المادية ،
وأبانت مجزها عن تفسير الظواهر النفسية ، وأقامت أجل بنيان للفلسفة
الروحية . . . وثمنه ٣٢ قرشا

أقاصيص لكبار الكتاب الإنجليز (قصة) وثمنه ١٢ قرشا

العالم المفقود » » ١٢ »

الكبرياء والهوى » » ١٥ »

ثلاث قصص رائعة فى أسلوب قصصى جذاب ، نقلها إلى العربية عميد الترجمة
فى مصر الأستاذ محمد بدران المراقب المساعد للثقافة العامة بوزارة المعارف

i1589826x

66726799

25 JUL 1989

NOV

1974

THE UNIVERSITY OF CHICAGO PRESS



1 0 0 0 0 1 3 9 2 7 5

26 JUL 1989

